العرب فى صقلية

وأثرهم فى نشر الثقافة الإسلامية

للأستاذ
يوسف حسن نوفل



العدد السابع والأربعون

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة

كتب إسلامية
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

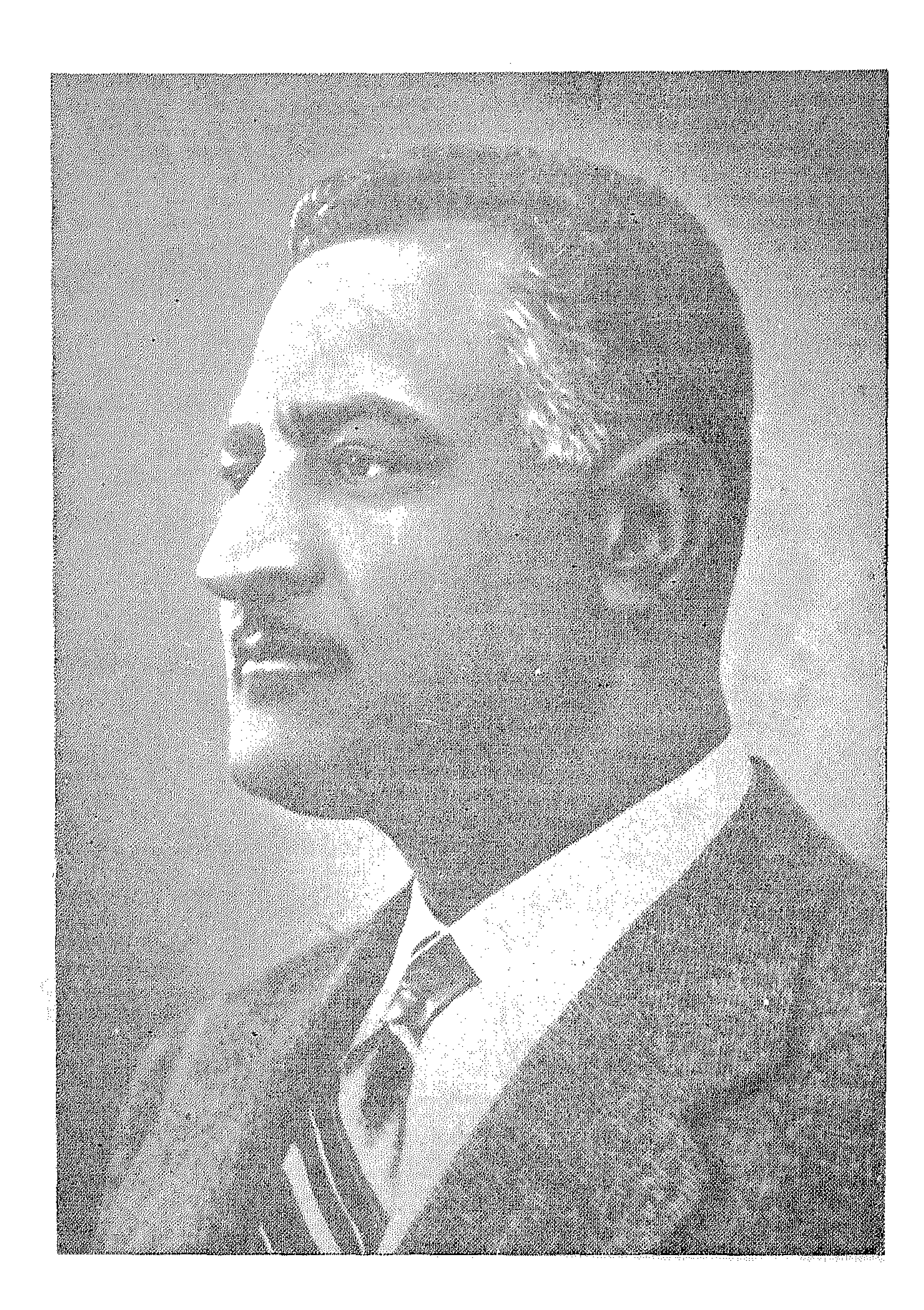
العرب فى صقلية

وأثرهم فى نشر الثقافة الإسلامية

للأستاذ
يوسف حسن نوفل

(٤٧)
السنة الخامسة
١٥ من صفر ١٣٨٥ هـ
١٥ من يونيو ١٩٦٥ م

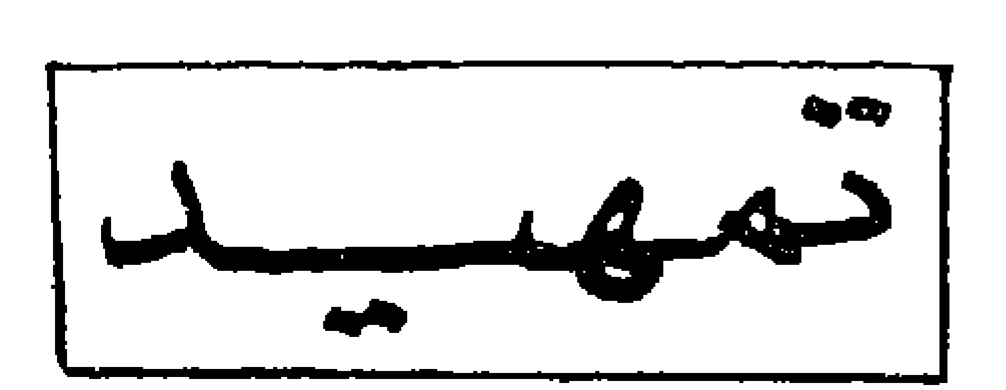
يشرف على إصدارها :
محمد توفيق عويضة



بسم الله الرحمن الرحيم

«كُنْتُم خَيْرَ أُمَّـةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَـأْمُرُون بالمعْـرُوفِ
وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ باللهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الكِتَابِ
لَكَانَ خَيْرًا لَهُم»

«آل عمران»



تمهيد

اجتاز الاسلام ساحة واسعة المدى مخصبة التربة من ساحات التاريخ وطبعها بطابع متألق وهاج ملأ جوانب الدنيا بسمة عالمية قائمة على ايمان المسلم بالتفاؤل والخير ·

واذا تمت عملية اخصاب ضخمة فى صقلية يحق لنا أن نقول : ان التاريخ قد رسا على ضفافها ليبصر مجدا ويبارك حضارة أسس دعائمها المسلمون ايمانا منهم بامتداد علاقات الحياة وبأن من أقدس واجبات كل جيل أن يورث من يليه من أجيال أعمالا تنبض بالحق والخير والجمال ذلك أن مجد الأمم يكمن فيما لها من آثار فكرية وروحية تنتقل ميراثا باقيا من جيل الى جيـــل · ولهذا غدت الحضارة الاسلامية يومئذ مدرسة الدنيا بأثرها وملتقى حضارات جمة : شرقية وغربية ، ومزدحم ألوان شتى من الفنـــون فحققت بذلك شيئا كثيرا مما طمحت اليه الأمم والشعوب فى ميـــدان التقدم ، وكانت صوت الأقدمين الخالدين الى أبناء كل جيل صاعد متحضر ·

واذا تمثلت الحضارة كما يقولون : فى حسن الخلق والذكاء ، وفى العمران المبنى على الذوق ، وفى العلم الناشىء عن التفكير ، وفى

الثراء والبذخ وفى الاستعداد للدفاع عن الدولة من غير خشونة أو مغالاة تقضى على جوانب الحياة الأخرى ٠

إذا تمثلت الحضارة فى ذلك فمن الحق أن أقرر أن حضارة الاسلام فى صقلية جمعت ذلك كله وبلغت الحد الذى تفوقت فيه على نفسها وكل شيء صدر عنها كان ممثلا لخصيصة من الخصائص الانسانية ومنميا لرصيد الحضارة البشرية وغدت أغنية عذبة فى أفواه المنصف من المؤرخين وغصة محرقة فى أفواه المتعصبين الذين حرصوا على اغفال دور حضارة الاسلام فى عصر الاحياء الأوربى وإثارة العصور الوسطى واذا ما بدت لهم الحقيقة الناصعة تجلو الدور الانسانى الخالد الذى حملته حضارة الاسلام فى صقلية على كاهلها عدة قرون حطمت فيها الجهل والجمود وبددت سجف الظلمة وعروش الاستبداد ـ اذا ما بدا لهم ذلك ردوا المؤثرات الى الحضارة الرومانية والأقبح من ذلك أن يعتبروا العرب ضمن الأجناس المتأخرة البربرية التى شوهت مدينة الرومان ! وكان الزمن كفيلا أن يضع هؤلاء بأن الحضارة التى بددت ظلمات العصور الوسطى بثتها أرواح وعقول ارتفعت فوق العصور والمجتمعات تقديرا منها للحقيقة التى تقرر أن ثمرات التفكير البشرى ملك للانسانية وتكفل الزمن ـ أيضا ـ باقناعهم أن عصر الاحياء الأوربى وان كان حركة عقلية كبيرة فقد سبقته نهضة علمية فى أوربا على يد الرهبان النصارى الذين استمدوا النور من علماء الاسلام فى صقلية والأندلس على أن الحضارتين المؤثرة وهى الاسلامية والمتأثرة وهى الأوربية تشتركان فى جذور قريبة وهى البحر الأبيض المتوسط ٠

وبعد ٠٠ فكيف كان ذلك الأفق الواسع مجالا لانطلاق شمس المعرفة الاسلامية ، ومدرسة تخرج فيها حملة مشعل الاحياء الأوربى قبل أن نرصد حركة ذلك الانطلاق العملاق فى مجالات الثقافة المختلفة سنلقى نظرات سريعة على صقلية ٠

صقلية والصقليون

تتكون صقلية من مرتفعات وهضاب وتحتل مدنها الأجزاء العالية مما جعلها حصينة عنيدة أمام كل فتح . واتسمت بسمتين كان لهما أثرهما فى تاريخها بصفة عامة . السمة الأولى : موقعها البحرى ، والثانية : توسطها بين افريقيا وأوربا وهى لهذا ملتقى حضارات جمة فينيقية ويونانية ورومانية وقوطية وبيزنطية وعربية .

وقد بدأت أنسامها تختلط بأنفاس المسلمين منذ نزلها حبيب ابن أبي عبيدة حفيد عقبة بن نافع ثم عودته الى افريقيا والنتيجة التى تلت هذا هى استيقاظ الروم وحرصهم على تحصين صقلية غير أن خطوات الفتح الاسلامى بدأت مع استغاثة ثائر بصقلية على القسطنطينية وهى « فيمى » "Euphemius" الذى لجأ الى بنى الأغلب فعهد ابراهيم بن الأغلب الى أسد بن الفرات حيث قاد أسطولا فى النصف من شهر ربيع الأول سنة ٢١٢ هـ وجابه أهوالا ذابت أمام قوة المسلمين النفسية . وما أن فتحت بلرم حتى صارت صقلية فى أيدى المسلمين وان ظل قسمها الشرقى القريب من القسطنطينية عنيدا يؤلب سائر القلاع المستسلمة على المسلمين ثم سقطت سرقوسة وبعدها طبرمين وبقى معظم القسم الشرقى يكتفى بدفع الجزية فقط واستعدت الجزيرة بعد ذلك لاستقبال قيم جديدة ودين جديد ، وتمتع عبيدها بحياة جديدة ، فى ظل النظم الاسلامية التى حكمت

بين الناس بما دفعهم الى تقدير الاسلام والاقبال على اعتناقه والتشرف بمصاهرة المسلمين. ثم شهدت الجزيرة شيئا من التنافس العباسي والفاطمى انتقل خلاله الحكم من يد الأغالبة الى بنى أبى الحسين الكلبيين حيث تم ارتباط صقلية بالخلافة الفاطمية ارتباطا وثيقا .

وعرفت صقلية من الكلبيين عشرة ولاة طيلة خمس وتسعين سنة نشطت خلالها شتى القطاعات العمرانية ، والثقافية مع هدوء وأمن اجتماعيين عادا على البلاد بالتقدم الحضارى ، والنمو الفكرى مما مهد لصقلية أن تتزعم حركة فكرية كبرى تنافس مثيلتها فى الأندلس ، ومصر والقيروان بل قدر لها أحيانا أن تحتل الصدارة بالنسبة لسائر المراكز الاسلامية يقول المؤرخ الانجليزى : « سنجر » « ان صقلية دانت للعرب بعد أن كانت تحت حكم الامبراطورية البيزنطية وسقطت بلرم سنة ٨٣١ م وكان النصر حليف الهلال الذى امتد سلطانه سنة ٨٤٦ م الى روما نفسها » .

ونتيجة تفوق المسلمين فى شتى القطاعات بدأت آمالهم تغزو الآفاق المجاورة حتى وصلوا الى جنوب ايطاليا واستسلمت ساليرنو ونابلى ومونت كاسينو فاستعدت تلك البلاد لتقبل نفحات الثقافة الاسلامية الثرية .

ثم كان انتقال الحكم من الكلبيين الى أمراء الطوائف حيث بدأ التنافس .

وشرعت صقلية تشهد قوادا يتقاتلون ويختلفون فيهزم ابن الثمنة فيسرع يطلب النجدة من النورمان الذين كانوا على شوق لفتح صقلية فاستولوا على مسينة (١٠١٦ م) ثم هفت قلوبهم الى بلرم التى ظل أهلها على اختلافهم رغم أن النورمان يعيثون فيها فسادا ثم سلمت مازر وتمت الفترة الأولى من الفتح (٤٦٤ هـ ـ ١٠٧٢ م) وبعدها بعشرين عاما تم الاستيلاء على الجزيرة ولم تجد

بعد ذلك بطولة « ابن عباد » بسرقوسة اذ تيسر لروجر أن يتكىء على أعمدة الاطمئنان ويشرع فى حكم الجزيرة ومعاملــة المسلمين ـ وخاصة علمائهم ـ معاملة حسنة عادت بالخير لا على الجزيرة فحسب بل على الحضارة الأوربية بأسرها وهنا تجدر الاشارة بادىء ذى بدء الى أن المسلمين رغم ذهاب الحكم من أيديهم لم يبخلوا على الانسانية بمواصلة ما بدأوه وأضافوا الى ما أنتجوا من ثمار ما استحقوا به أن يتولوا زمام الفكر قرونا عدة ·

وقد عاصر هذا التاريخ الحافل أجناس متنوعة :

عاصره : مسلمون شرقيون وغربيون كان منهم الشــامى ، والسوسى والباغانى والكلبى والقيسى والكتامى واللواتى والبربرى والفرسى والزنجى ·

كما عاصره : صقليون واغريق ولمبارديون ويهود ·

الا أن العقول الناضجة والأيدى العاملة كانت وخاصة فى أول الأمر عربية ، كما أن المراكز القيادية الفكرية كان يديرها العرب ·

وملاحظة أخرى : وهى : أن صقلية كانت منطقة عبور ثرية لكل ما أنتجته القــرائح العــربية فتيسر للثقــافة الأندلسية ، والقيراونية ، والبغدادية ، والمصرية أن تعبر عن طريق صقلية ·

والآن أبدأ حكاية رحلة الخلود التى تمت على أرض الجزيرة الخصبة مهتما بالأثر الاسلامى الحضارى سواء كان ذلك فى العهد الاسلامى أم فى العهد النورمانى فقد كان أرباب الفكر وأساتذة العلوم فى الفترة الثانية مسلمين دينا وثقافة وقدموا للانسانية ما تعجز عن تصـويره الأساطير واذا كانت الجزيرة القديمــة تروى أسطورة خروج « برسيفونة » الجميلة ابنة ربة الخصب الى المروج الصقلية الخضر تتهادى بين رقرقة الجداول وتمايل الأزهار حتى اقترب منها رب الجحيم والعالم الأدنى خلسة فاختطفها واختفى· فان الجزيرة الحديثة تروى حقــائق واقعية تضــارع الأساطير والأحلام ، أما أبطال هذه الحكايات فهم : المفكرون العرب ·

الادب

الشـــعر :

التبادل بين صقلية وغيرها كان على أشده وكثيرا ما تتردد أشعار صقلية فى مصر أو أفريقيا أو الأندلس .

وأول ما تجدر الاشارة اليه هو أثر ابن رشيق فى النشــاط الأدبى بصقلية فقد كان لكتابيه العمدة والأنموذج أثرهما ولا سيما وقد مارس نشاطه النقدى فى حلقات عديدة عامرة عقب انتقــاله الى الجزيرة .

وقد حفل الشعر الصقلى بملامح البيئة التى يتمو بين أحضانها فنجد « المعسكر » يتردد فى شعر من تنفس هواء بلرم ذات العيون والبساتين يقول الشاعر ابن الأضبطى الكاتب :

أنا فى المعسكر مفرد فى جحفل
من نوح قمرى ورنة بلبـــــل
فكأنمـــا يلقى على بصـــوته
نغمات معبد فى الثقيـل الأول

والشخصية الصقلية فى الشعر الصقلى ابان الفترة القصيرة التى يمكن تحديدها من ٢١٢ هـ الى ٤٦٤ هـ لم يقدر لها أن تولد بين يوم وليلة فالشاعر الذى ينتج شاعر افريقى وبالتالى فان ملامح شعره ولسانها افريقى أيضا ويمتد هذا الاهتزاز فى الشخصية

الى ٣٥٩ هـ حيث تبدأ الشخصية الصقلية فى الظهور ومن رواد تلك الفترة : سهل بن مهران ، وعلى بن الحسن بن ابى سعيد القاضى ، وأبو اسحق ابرهيم بن مالك العافرى الناضى — وكعادة الشعر العربى حيث ينمو مع تاكد الصلات وتوثقها ، نما الشعر حين اجتمع الشعراء حول الوالى « صمصام الدولة » وصاحب الخمس « ابرهيم بن محمد الشامى » ولهذا فان ذلك النمو لم يكتمل الا فى أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس وصاحب ذلك النمو التصاق بأرض الجزيرة حيث انغرس فى أعماق كل شاعر حب صقلية والايمان بها وان لم يطل به العهد فقد جاء الفتح النورمانى ليحدث فى النفوس ألوانا متباينة من المشاعر .

على أنه كانت قد تهيأت للشعر الصقلى فرصة نمو صاحبت الفتنة التى كان من نتائجها اسقاط الكلبيين وتقسيم صقلية الى دويلات الا أن هذه الفرصة لم تعط الثمار المرجوة ويعلل ذلك الدكتور احسان عباس بقصر فترة أمراء الطوائف ابان نظام التقسيم .

والذى أراه أنه كان من الممكن لتلك الظروف أن تخصب الشعر بدليل أن الشعراء اتجهوا وجهتين وجهة تبكى الكلبيين ، ووجهة تصفق لضاربيهم غير أن الفتح النورمانى بما أحدثه من ذهول نفسى وحيرة مشدوهة عاق تلك الانطلاقة الشاعرية وأوقف خصوبتها ، وشرع الشعراء يتهيأون لظروف جديدة غير مقبولة ولسانهم يقول :

ويا وطنى ان بنت عنى فاننى

سأوطن أوكار العتاق النجائب

ورأينا ابن حمديس يبكى وطنه ويشكى تضعضعه .

وتماما كما كان فى كل شعر عربى : اتجاه زاهد ، واتجاه جائع

وجدنا فى صقلية هذين الاتجاهين وخير ما يمثل الأول تلك الفكرة السوداوية لدى الشاعر الذى يقول :

لو قيـــل لى أى شىء
تهوى لقلت خـــلاصى
النـاس طـــرا أفاع
فلات حين منـــاص

ومن شعراء صقلية فى ذلك الحين : ابن حمد يس ، وأبو العرب الصقلى ، وابن أبى البشر ، وأبو عبد الله بن الطوبى ، وعبد الحليم الصقلى ، وابن الخيـاط الربعى ـ والذى يهمنى هو الأثر البيئى ، والمستوى الفنى لدى كل شاعر واذا كان الجزء المخصص للأدب فى بحثى لا يحتمل الافاضة فيكفى أن أركـــز على شاعرين فقط أولهما : ابن الخياط الذى التصق شعره بأعماق الأرض التى يمشى عليها فهو يصف الكرمة :

ملاحية بيضا وســودا حوالكا
وحمرا وصفرا ملبسات مجاسدا
كأن على أيدى القواطف تحتهـــا
بما فتأت منها عروقا مفاصـــدا

وهو حريص على استغلال الملامح الريفية فى ثنـــايا صـوره الشعرية فنحس بالمياه وتفجرها والأرض وخضرتها فى همســـاته الشعرية .

أما مستواه الفنى فانه يميل الى الرقة كما يتضح فى النموذج القصير السابق وهو لهذا متأثر بابن الرومى وبشار بن برد وفيه نرى اتساع الحدقة وجمال الاطار تماما كأناقة الشعراء الأندلسيين.

أما ابن حمد يس فهو صقلى معيشة وشعرا بالرغم من أن مقامه بصقلية لم يتجاوز الأربعة والعشرين عاما وهو يتحدث من قلبه ..

أحن الى أرضي التى فى ترابها
مفاصل من أهلى بلين وأعظـــم
كما حن فى قيد الدجى بمضلة
الى وطن عود من الشــوق يرزم

والى جانب قوة الموضوع التى كانت تقوم على حسن اختياره له فانه جمع الى ذلك الصدق العاطفى ، والتجويد الفنى ولوعة الغربة يقول :

فرغت من الشباب فلست أرنو
الى لهو فيشغلنى الرحيـــــق
ولا أنا فى صـــــقلية غـــلاما
فتلزمنى لـــكل هوى حقــوق
ليالى تعمل الأفـــــراح كـأس
فما لى غير ريق الـــكأس ريق
تجنبت الغـــواية عن رشــــاد
كما يتجنب الكذب الصـــدوق

وفى العهد النورمانى بقى شعراء وعاصروا روجـــر الثـانى وظلوا مرتبطين ببيئتهم بل ان اغراء روجار للشـعراء جذبهم الى صقلية فرحل ابن قلاقس عن مصر الى صقلية ٠

والذى يهمنى بعد ذلك كله هو الأثر الفنى الذى تركه الشــعر العربى الذى ارتفع صوته بين الشعر اليونانى واللاتينى فوجدنا مدرسة صقلية تنظم الشعر الدارج تنشأ فى بلاط غليالم الثانى وتبلغ قمتها لدى فردربك الثانى الذى اهتم هو وولده « منفريد » بكل الدراسات الاسلامية وبفضله تخلى الشعراء عن محليتهم وآثروا اللهجة الصقلية ٠٠ ولم يبخل بالتشجيع على الشعراء بالتتويج بالأكاليل ، والتلقيب بـ « ملك القريض » ٠ وهنا ولدت الأوزان

الشعرية الجديدة التى انتقلت بعد ذلك الى ايطاليا وظهرت فى أنواع شعرية مثل Tenzone, Canzone · ولهذا فان المستشرق الصقلى أمارى يقول : « انه لو زادت معرفتنا بالشعر الشعبى العربى فى صقلية لأصبح من المحتمل أن تكشف عن صلات وثيقة بينه وبين الشعر الايطالى القديم ثم يضيف ان الباعث على ممارسة الشعر باللغة العامية فى صقلية هو علم أهلها بأخبار شعراء العرب ويؤيد هذا اتفاق الشعر الشعبى المبكر فى ايطاليا فى أوزانه مع الشعر الشعبى فى أسبانيا مما يدل على أن المؤثر واحد فى الحالتين ·

ومما يدل على أن صقلية مدينة للعرب وايطاليا مدينة لصقلية بابتكار الشعر الوطنى ·

والى جانب معرفة روجر ، وغليالم ، وفردريك باللغة العربية فقد عرفها يوجين وغيره ولهذا فليس بعيداً أن يكونوا قد تأثروا بالشعر العربى من خلال ترجمته ·

وقد كانت قدرة الشعراء العرب الفنية ذات تأثير مباشر فى الشعر الايطالى وخاصة فى أغانى « جاكوبونى دى تورى » وأغانى المهرجان ، وكذلك القصص الشعرية ويؤكد الأثر العربى فى الشعر صيحة بترارك الشاعر الايطالى الذى درس بجامعتى مونبليه وباريس : « ما خطبنا ! لقد استطاع شيشرون أن يصبح خطيبا بعد ديموستين واستطاع فرجيل أن يصبح شاعرا بعد هوميروس أما العرب فهل قدر علينا ألا نكتب شيئا بعدهم ؟ » ·

وفى كتاب المستشرق الفرنسى هيوارث Huart تأكيد لذلك ·

وعلى الرغم من المشاعر القائمة التى يظهرها « دانتى » ازاء العرب والاسلام فانه يقرر أن الشعر الايطالى ولد فى صقلية وانضم ذلك الى تأثير الشعر العامى فى بروفنس حيث التروبادور وقد

استمر التأثير حتى « دانتى » ، « بوكاشـــيو » ، « وبتــرارك » الايطاليين .

النثـــر :

شهدت بلرم أنشط نهضة أدبية على يد عنـــاصر افريقية وما لبثت هذه العناصر أن تأقلمت ثم خلفها جيل جديد مثل الجزيرة تمثيلا أمينا .

ومن كتاب الانشاء كان أبو عبد الله بن الطوبى الذى كان يكتب الشعر أيضا غير أن النثر كان يطغى على انتاجه ويتميز فنه بسرعة البديهة وذكاء اللفتة ودقة التسجيل وحب الايجاز .

وأهم حدث أدبى هو وصول ابن رشيق الناقد العربى الكبير الى الجزيرة حيث بدأ يستقر بمازر بموسوعته النقدية « العمدة » وكتابه القيم « الأنموذج » وكان له أثره الضخم فى النقد الأدبى وفى تلاميذه الملتفين حوله والمقتفين لآثاره ، وأصدقائه المعجبين بفنه المقدرين له .

وقد تكون رصيد ضخم من الجنسين الأدبيين الشعر والنثر يمثل الشخصية الصــقلية وتظهـــر انطباعاته فى الآداب الأخرى فالشاعر الايطالى الخالد « دانتى » تأثر فى عمله الفنى « الكوميديا الالهية » بمصادر عربية على الرغم من نبوغه الفنى .

وكثير من الباحثين الأمريكان والأوربيين خاضوا المناقشات حول هذا التأثر حتى تم على يد المستشرق الاسبانى « ميجل آسين بالاثيوس » سنة ١٩١٩ اكتشاف النماذج الاسلامية لدى دانتى حيث فسر تأثره بحكاية الاسراء والمعراج التى حكاها القرآن الكريم :

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله » .

بالاضافة الى الزيادات التى وردت فى الروايات العربية العديدة ثم الأبحاث الصوفية العربية كتلك التى كتبها « محيى الدين ابن عربى » فى « الفتوحات المكية » وقد أكد « آسين » أن دانتى متفق مع فصول المصدر الصوفى الاسلامى وأيد هذا الموقف كل من : اندريه بلور ، ولويس جيبيه · وان اعترض الدانتيون الايطاليون وخاصة المستشرق الايطالى جبريل بأن دانته لم يكن يعرف العربية غير أنى أستطيع أن أستدل من معرفة « بروفينو لاتينى » ــ أستاذ دانتى ــ للغة العربية بأنه أخذ عنه ما اعتمد عليه فى كوميديته هذا الى جانب حب دانته للاطلاع وخاصة لتراث الحضارة السائدة وهى الحضارة العربية ، وإقامته فى صقلية على عهد فردريك الثانى ·

وأكد وجهة نظر آسين أبحاث تشيرولى (ايطالى) التى ضمنها كتابه « كتاب المعراج ومسألة المصدر العربى الاسبانى للكوميديا الالهية » وكذلك ما قام به « مونيوس سنداينو » فى بحثه « معراج محمد » حيث ظهر كتاباهما فى وقت واحد وأكدا اتصال دانتى بالمصادر العربية عن طريق مخطوطة عربية ترجمت بأمر من الملك ألفونس العاشر ·

ومن الكوميديا ذاتها يستدل الدكتور « محمد غنيمى هلال » على التأثر بتحديد الفصول المتشابهة بين الأدبين وحيث أحل دانتى ابن سينا وابن رشد محلا كريما ، وكذلك فى وصفه للجحيم وبيانه لمهمة من يصحبون الرسول فى رحلته من الملائكة ، وكذلك وصفه للنسر الملائكى وتشابه وصفه للمثول القدسى أمام الله للوصف العربى ·

أما سائر القصص والروايات العربية فقد تأثر بها الأدباء الأوربيون فى العصور الوسطى وما بعدها · فكتب بوكاشيو سنة ١٣٤٩ م حكاياته : « الصباحات العشرة » متأثرا فيها بألف ليلة وليلة وعنها اقتبس شكسبير ولسنج الألمانى كما تأثر أيضا

بترارك ، وشوسر وسرفانتس ودليل التأثير عدم خلو معظم الأدب الأوربى القريب من هذه الفترة من بطل اسلامى مثلما نرى لدى كل من : شكسبير وأديسون وبيرون وسوذى وكولردج وشلى ولافونتين ومنتسكيو •

ويضاف الى هذا التأكيد ما يقرره « أمارى » من امداد القصص العربى القصص الأوربى بالشكل والمادة •

***

وهكذا قام الأدب العربى فى القرون الوسطى بنفس الدور الذى تجلى فى كل الميادين الثقافية الاسلامية من احتلال المنزلة الريادية الجليلة بعد اعتلائه ذروة التفوق الخارج الذى دفع بكل متذوق الى تقبل مزيد من الفيض الفنى الخصب وتتبع كثير من اشعاعات الهدى والتأثير فى وقت كان من الضرورى على كل راغب فى التطور أن يضاعف من نصيبه فى التقبل والأخذ والمدارسة الواعية •

ومثل هذا الموقف سنلتقى به كثيرا خلال المناقشات العديدة التالية ان شاء الله •

الفنون الجميلة

العمـــارة :

لم يتوان المسلمون عن ممارسة ابداعهم الفنى على نحو آخر يتمثل فىتلك الروائع التى تحدت الفنـــاء وانتصرت على الزمن . فداعبت أناملهم الصخر لتحيله الى قصور تضارع الاحلام .

وقد كانت المساجد مجالا خصبا تجلت فيه عبقرية المسلمين وظهر فيهـــا نبوغهم الفنى . وبالرغم من أن ما تبقى من مبانى العرب بصقلية قليل الا أنه يضم بين جنباته ملامح الفـن العربى الذى تجلى حينذاك وكان مدرسة فنية قائمة بذاتها . وقد جمع الى جانب الأناقة براعة اللمسة ، وفنية الشكل .

ومن أشهر تلك الآثار قصران هما :

« قصر القبة » ، و « قصر العزيزة » . وهما قرب « بالرم » واذا كنا حين نطالع ما يكتبه الادريسى فى وصف « بالرم » مشيدا بفخامة قصورها ، وكذلك ما كتبه غيره من مؤرخى العرب مثل : ابن حوقل ، وياقوت ، والقزوينى ، نحس بشىء من المبالغة ، فان ذلك الاحساس سرعان ما يتلاشى حينما ينضـــاف الى ما قاله الادريسى ماتحدث به الراهب ثيودور حيث أشاد بطريقة التزيين بالرخام الثمين والفسيفساء واحاطة ذلك كله بالرياض الواسعة الحافلة . وقد حدث أن أسر ثيودور فى أثناء حصار سرقوســة

(سنة ٧٧٨ م) ونقل الى بلرم فأتيح له مشاهدتها عن كثب فلم يسعه الا مدح قصور هذه المدينـــة ومساجدها ولهـــذا فان شيئا قليلا مما كتبه الادريسي يمكن أن أورده هنا لعـله يكفى فى التعبير عن النهضة الفنية المعمارية آنذاك. يقول ، فى وصف بلرم : « بلرم هى المدينة السنية العظمى والمحلة البهية الكبرى والمبنى الأعظم الاعلى علم بلاد الدنيا واليها فى المفاخر النهاية القصـــوى. ذات المحاسن الشرائف ودار الملك فى الزمان المؤتنف والسالف .. ولها حسن المبانى التى سارت الركبان بنشر محاسنها فى بناءاتها ودقائق صناعاتها وبدائع مخترعاتها .

واذا كان لناأن نتعرف على نوع الحجارة التى استعملت فى تلك المبانى التى تحدت الرياح والزمن عبر رحلة طويلة تزيد عن الف عام فانا نجزم بأنها كانت أولا الآجر غير ان مهـارة العـرب وخبرتهم فى الانشاء جعلتهم يمنحون الخلود لمبانيهـم البسيطة والقوية فى وقت واحد حيث أن طريقة البناء كانت بالحجـــارة المنحوتة المتلاصقة .

ومن هنا يبدو الفرق واضحا بين مستوى صقلية العمرانى عند دخول العرب لها وبين مستواها عند انتهاء سيطرتهم عليهـا مما يؤكد أنهم منحوها ما لم تكن تحلم به فى أية ظروف أخرى .

وسرعان ما إقتبس الأوربيون من الفن الاســـلامى بصقلية وخاصة طريقة تخطيط الواجهات فى المبانى الرخاميـــة ، وكذلك مآذن المساجد ، وأبراج النواقيس التى اتخذت فى كنائس ايطاليا فى عصر النهضة أشكال مآذن المساجد والتى نقـل عنها « دن » ما صمم من أبراج عند ترميم ، ثم اعادة بناء كتدرائية القـديس بولس فى لنـدن ويقرر « فيليب حتى » أن شـكل بنــاء أبراج الأجراس المعروف بـ « Campanili » فى عصر النهضة مأخوذ عن شكل المئذنة المربعة .

وانتقل التأثر الى بيزا ، وجنوا ، وفلورنسا وغيرها من مدن ايطاليا مما يؤكد أن مدي تأثير المسلمين الفنى تعدى حدود البلاد التى اقاموا بها الى بلاد أخرى شغفت بأسلوب العمارة الاسلامى ولهذا فان أسماء القلاع تبدأ دائما بلفظ « قلتا » أى قلعة .

ويؤكد ذلك « ديبل » الذى يقول : « ان العرب حملوا الى صقلية فنونهم وقناطرهم العالية الجميلة ونقوشهم من المقرنصات والقاشانى ذى الميناء وفسيفسائهم الرخامى الملون » .

حتى بعد زوال سلطان المسلمين عن صقلية استمر المهندسون والبناءون العرب الذين عملوا للامراء يقدمون أعمالهم الى ملوك النورمان فأتيح لأعمالهم من الخلود ما لم يتح لاسلافهم .

وفى كتب التاريخ العربية صفة الجامع الاعظم فى بلرم :

« تغرب عن الأذهان لبديع ما فيه من الصنعة والغرائب المفتعلة والمنتخبة والمخترعة . ومن أصناف التصاوير وأجناس التزاويق والكتابات .

ولعل من بواعث الدهشة ما نعلمه من أن مساجد بلرم كانت تنيف على ثلثمائة مسجد حتى ان ابن حوقل ـ المتحامل على مسلمى صقلية يقول : « ولم أر مثل هذه العدة فى بلد من البلدان الكبار على ضعف ساحتها ولا سمعت به » .

وتفاصيل مبانى العرب ينبئنا بها الادريسى حيث يقول : انها على قسمين : قصر ، وربض . والقصر على ثلاثة أسمطة فالسماط الاول يشتمل على قصور منيفة ومنازل شامخة ، الى آخر ما يصف الادريسى مؤكدا تفوق المسلمين المعمارى .

وقد انفرد فن العمارة الاسلامى بسمات خاصة ففيه ظهر فن الأقواس على هيئة البيكارين والذى يأخذ شكل حدوة الفرس . وكذلك المقرنصات والمتدليات ـ ولهذا فقد انشأ العرب الكوات الصغيرة الناتئة المثلثة والكرية التى تتدلى

تدليا هندسيا شبيها بخلايا النحل وقد كان استعمال تلك الألوان فى صقلية منذ القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين وكان للعرب فضل السبق اليها وانتشرت بعدهم مع قدوم القرن الثانى عشر .

على أن دراسة تلك الآثار ذات أهمية كبرى فى مجال التعرف على نشاط المسلمين . والعجيب فى الامر أن القبة والعزيزة كانا حصنين ومسكنين معا .

والآن هذه فكرة موجزة عن كل من القصرين :

« العزيزة » :

تتخذ شكلا تكعيبيا واسعا . ويبدو للنظرة الاولى الى جدرانه أنها تتألف من أقواس طويلة على هيئة البيكارين تحيط بها نوافذ مزدوجة ذات أعمدة صغيرة وحول ذلك كله افريز أعد ليكون لها تاجا وقد ستر الافريز بخطوط كوفية . وقد طرأ عليها تغييرات عديدة .

القبة » :

أما القبة فتتفق مع العزيزة من ناحية الشكل الخارجى والأقواس التى على شكل البيكارين وانتظام شكليهما والقصران يختلفان فى أسلوبهما الفنى عن الفن الاندلسى .

ويذهب « برانجه » الى أنهما يتشابهان مع الطرئز المصرى الا أن « لوبون » يعارض فى ذلك مقررا أنه ربما شابهتا بعض أجزاء جامع ابن طولون واكتملت جوانب الصورة فضارع فن العمارة الاسلامى اجمل فنون البناء قديما وحديثا. ينتج ذلك كله سليقة عربية وطابع مستقل عن الاساليب التى اقتبس منها العرب فنون البناء ولعل هذا هو ما حدا ب « جيرو رانجة » الى أن يقسم فن العمارة الاسلامى الى أدوار ثلاثة . كان أولها : الدور البيزنطى الا أن « لوبون » لايوافقه على ذلك .

ويشترك العقاد فيما يقرب من هذه المناقشة مقررا استقلال الفن العربى مع استفادة العرب من فنون الفرس والروم واستعانتهم ببناءين من القبط والارمن .. ثم يقول :

« ولكن اليد الصانعة لم تكن فى الحقيقة الا الأداة المعبرة عن الروح العربية التى لا تلبس بغيرها . من ذا الذى يتملى منظرا من مناظر القصور العربية ويعزل بينه وبين رشاقة النخلة الهيفاء وخفة الفرس الضامر وهودج الحرم المكنون وتناوب الحياة بين الفضاء والظلال ؟.

ومن ذا الذى ينظر الى تلك الأقواس والنوافذ ولا يعقد الصلة بينها وبين الحافر تارة والخف تارة أخرى » .

ثم يشير بعد ذلك الى صعوبة نقل هذا الطابع الخاص بتفاصيله الى أوربا لأنه اما لمسجد أو اقليم .

والذى أراه هو أن ذلك التقسيم-الذى ارتضاه « رانجه » لايقضى بأى حال بتجريد المسلمين من عامل الخلق والابداع وصفة الأصالة اذ أن المحاكاة وظاهرة التأثير والتأثر واضحة فى كل مجال وأهم ما يقال فى هذا الصدد : ان المسلمين انتفعوا فى الناحية الفنية بجهد من سبقوهم وخلعوا عليه ذكاءهم واستعدادهم وطاقتهم الفنية .

وأخيرا فان من حق المسلمين أن يفخروا بآثارهم فى صقلية كقصور العزيزة ، والقبة ، والفوارة ، وبمدائنهم الباسمة التى كانت تسمى « البيضاء » وذلك فى بلرم ومازر يقول ابن جبير : « ان مبانيها قرطبية الطابع ومنحوتة بالحجر المعروف بالكذان وكذلك قلاعها التى كانت مجالا خصبا لخيالات الشعراء تماما كما كان لقرطبة ، وأشبيلية وغرناطة من قبل .

ولقد كان مما يبهر حقا تلألؤ مظاهر القوة والبأس فى المظهر الخارجى للمبانى ويقابل ذلك من الداخل زخرفة تشير الى الرقة والأناقة أى أن الاثر الاسلامى ضم جوانب متعددة يمكن أن تتحدد من خلالها نفسية الفنان المسلم .

الزخرفة والرســم والتصوير :

كان لاستعمال الخط العربى فى الزخرفة ماجعـل الأوربيون يعجبون بالتحف الاسلامية وبما عليها من كتابة رغم عدم معرفتهم معناها . حتى أن الكثيرين من مصورى عصر النهضة كانوا يزخرفون أطراف الملابس والأشرطة والمزركشات والأقمشة والمعادن والأخشاب المرصعة والمنقوشة بحروف عربية وفى كثير من خزائن القصـور والكنائس الأوربية تحف اسلامية تشهد بذلك ويذكر « توماس أرنولد » أنهم عثروا فى ايرلندا على صليب من مصنوعات القـرن التاسع نقشت البسملة على زجاجة فى وسطه بالحروف الكوفية.

وقد كانت دقة الفنان المسلم وميله الى الزخرفة سببا فى اغفاء كل فروع الفن من هذه الناحية فالفسيفساء والمنمنمـات والخزف والمنسوجات والطنافس .. كان تصميمها يقوم على تكرير وحدة تمثل صورة ما فنشأ من ذلك وحدة نظمية تلوح كنغـم موسيقى منسق ، وعن المسلمين فى صقلية أخذ الفنان الأوربى يحكى ويتأثر .

فقد بقيت الأساليب الفنية سائدة حتى بعد ذهاب المسلمين عن صقلية وانتشر التأثير الى جنوب ايطاليا وسائر أنحاء أورباوفى نورمبرج رداء حريرى كان للملوك صقلية وفيه كتابة بحـروف كوفية تاريخها سنة ٥٢٠ مما يشير الى انتقال فن صبغ الأقمشة الى أوربا عن طريق صقلية ، ومن صقلية أيضا كانت الأقمشـة المحلاة بالجواهر والطنافس المصورة بأنواع الصور مما تنتجـه مصانع بلرم ؤمازر فأصبح موضع تنافس وذا شهرة فى قصـور الملوك شرقا وغربا .

وقد أقبل البنادقة على تقليد التحف الزجاجية الاسلامية ، وخاصة مما كان مموها بالميناء ثم بدأت تنتشر فى أوربا ومما يشهد بذلك نقوش كنيسة البالاتين .

وعن الصناع المسلمين أخذ صناع الغرب الطريقة الجديدة فى زخرفة جلود الكتب وبعد أن كانت الزخارف تأخذ شكلا بارزا فقط بدأ الفنانون الاسلاميون يملأون الأجزاء المنخفضة بصبغات ذهبية وأدخل هذه الطريقة الى أوربا المجلدون المسلمـــون الذين أقاموا فى البندقية ٠

وبالرغم من أن فن التصوير تأثر باعتزاز المسلمين بتعاليـم دينهم وكانت صبغته هى الابتعاد عن تصوير الكائنات الحية فقد وجدنا كثيرا من التماثيل فى قصورهم ومبانيهم الا أن المساجد لم تتسع له من الناحية الشرعية ٠ وأكثر من ذلك فقد أثروا فى فن التصوير الأوربى فظهرت الصور المعممة والوجوه ذات السمــة الشرقية فى الصور الايطالية ويدل على ذلك أيضا ادخال الحيوانات غير المعروفة فى الغرب فى زخرفة الملابس والسجاد مثل الفهـــد والقردة والببغاوات .

وقد أقبل الأمراء والايطاليون اقبالا منقطع النظير على التحف والحلى العربية واتخذ عمالهم من المصنوعات العربيـة نمـــاذج يحاكونها فى الجودة والاتقان حتى نشأت فى البندقية مدرسـة مهمتها التوفيق بين الصناعة والزخرفة الاسلامية من جهة والذوق الايطالى فى عهد النهضة من جهة أخرى .

كما أخذوا عن المسلمين صياغة الذهب والفضة وتنزيلهما على السيوف والخناجر والمدى ولا سيما بعدأن هدأ المسلمون وانقطعوا عن الحروب فتفرغ الفنانون لانتاجهم الفنى الضخم فى ظلال حكم النورمان ٠

التحف العاجية :

هناك صناعات عاجية مثل علب الزينة ، وصوالجة الكهنـــة محفوظة بمتحف كريستيانو بالفاتيكان وغيره من المتاحف تمثــل القوة الصقلى آنذاك ٠

أما زخرفة الأبواق فيرجح مؤلف « فنون الاسلام »صناعتها في صقلية • وقد قلدها فنانو شبه جزيرة ايطاليا •

وقد نسب المؤرخون سبع حشوات في مجموعة كسران بمتحف قصر بارجلو بفلورنسه الى الفن الصقلى رغم أنها تتسم بطابع غربى غير أنه من المحتمل أن تكون من انتاج القرن السابع الهجرى بصقلية •

وفى كنوز ومتاحف الكنائس الغربية علب عاجية قد حفر عليها أو رسم بطريقة بارزة أشكال ملونة تنسب الى صقلية •

وفى القسم الاسلامى من متاحف برلين نقوش نباتات وحيوانات وطيور وبها آثار تذهيب •• والدلالة التى تتجلى من خلال ذلك الانتاج الفنى الضخم هى ان صناعة تطعيم العاج ازدهرت فى صقلية على أن معظم تلك الآثار يرجع للقرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى)

ومن التحف العاجية علب العاج التى كانت تصنع لحفظ قنيات العطر والمسك والعنبر والحلى وتحتفظ بأسماء أصحابها وصانعيها والمدينة التى كانت بها وتاريخها وهى بذلك ذات قيمة فنية تاريخية عظيمة •

الحفــــر :

تشهد منابر المساجد بالتحف الفنية المصنوعة من الخشب وكذلك السماوات (لوحات خشبية) التى تضم زخارف هندسية من دوائر ومضلعات وأقواس لون بعضها باللون الأخضر والأزرق وغيرهما •

وفى متحف بلرمو وبعض كنائسها أخشاب مزخرفة يبدو فيها أثر الطراز الفاطمى • ومنها ألواح باب فى كنيسة المرتورانا التى شيدت فى بلرمو سنة ١١٣٦ م على يد أمراء البحر فى عهد روجر •

وهى من العمائر الصقلية التى يظهر فى ترتيب قبابها وأسلوب زخرفتها تأثير كل من الفنيين الاسلامى والبيزنطى ·

ومن الملاحظ أن الرسوم هنا فى صقلية آنذاك اكثر تطورا من الرسوم الفاطمية عامة .

الزجاج والبللور :

امتدت العبقرية الاسلامية لفنانى العرب الى الأجسام الهشة لتبالغ فى التدليل على امتلاكهم للبراعة الفذة والطاقة الفنية ·

وفى متحف اللوفر ابريق يرجح مؤلف « فنون الاسلام » انه هدية من روجر الثانى ملك صقلية الى الكونت تيبوليت وفى ذلك اشارة الى أعمال الفنانين المسلمين ذلك أنهم ظلوا يعملون وينتجون وهم تحت سلطان ملوك النورمان ·

الخــــزف :

أما الصناعات الخزفية فقد اكتشفت قطع من الكاشانى فى صقلية وفى هذا ما يدل على وجود مصانع عربية للقاشانى بها ·

على أنه من المحتمل أن تكون قد جـاءت الى صقليــة بطريق التجارة عن الفرس ·

ويشتمل متحف كولونى على مجموعة نفيسة من الكاشانى يظن أنها عربية صقلية ·

النســـيج :

أقام العرب فى صقلية مصانع شهيرة للنسيج ، لم ينقطـــع صداها بزوال حكم العرب فتعلم الايطاليون منها أسرار فن النسيج ودقائقه وشرعوا ينقلونه الى المدن الايطالية وحفلت منسوجاتهـــم بالكتابة العربية ·

وسوف أكتفى بهذا القدر على أن ألتقى بهذا الفن بشىء من التفصيل لدى بحثى عن الصناعات بصقلية .

الموسيقى :

ربما كان لارتفاع مستوى المعيشة فى صقلية بعد أن بسط المسلمون على جنباتها أجنحة النشاط والعمل أثره فى ميلهم الى ما يجلب المتعة النفسية اذ أن المسلمين وهم فى قمة تفوقهم الحضارى لم ينسوا أن يغذوا عاطفتهم الى جانب تنمية امكانيتهم الأخرى .

ونشاطهم الموسيقى يتضمن ترجمة أبحاث اليونان فى هذا المجال ثم اضافة ما أنتجته قرائحهم الفياضة وأحسن وصف لتلك الاضافات هو ماعبر عنه Young بأنها « خلفت لنا ثروة عظيمة فى نوعها ومقدارها

وآية ذلك أن العرب سبقوا الأوربيين الى نوع من الهارمونى يسمونه التركيب أى توقيع النغمة الواحدة من عدة طبقات فى وقت واحد وهو يختلف عن الهارمونى بمعناها الحديث الا أنه يعتبر خطوة فى سبيل الوصول الى مستوى اليوم . وأول من وضع الهارمونى وسجل ذلك ابن سينا فى كتابه القيم « جوامع علم الموسيقى » وقد ترجم هذا المرجع الى اللاتينية حيث تأثرت به أوربا .

وقد أكد هذه الحقيقة فارمر Farmer خبير تاريخ الموسيقى العربية . وقد تداول العلماء الأوربيون بحوث العرب فىالموسيقى النظرية فانهم على قلة ماترجموه من هذه الأبحاث عرف منهم مئات سعوا فى سبيل العلم بالتتلمذ فى المدارس الاسلامية وتلك الحقيقة لايختلف حولها المؤرخون . ومن حيث التأثير كان من الموسيقيين الأوربيين من أدخل الأنغام العربية فى تقسيماتهم

المسرحية وغير المسرحية أمثال : روبنشتين وفليكان دافيـــد ، وسان سنس وغيرهم .

وربما كان دليل تأثر الموسيقى الأوربية بالموسيقى العربيـة واضحا فى تلك الألفاظ العربية الأصل .

Lute عود ، قيثاره Guitar

Ribible رباب ، الطبل Timbal قانون Ranoon

وقد ثبت أن العرب هم أول من دون النوتة الموسيقية وكـل المظاهر تؤكد نمو الموسيقى على أيديهم وأنهم خطوا فيها خطوات واسعة وقد استفاد المسلمون فى صقلية من المستوى الفنى الذى بلغته الموسيقى فى الأندلس ولهذا كان أثر مدرسة زرياب وما أدخلته على الموسيقى من جديد كاحلال العود ذى الأوتار الخمسة محل العود ذى الأوتار الثلاثة . الى جانب الآلات الجديدة المبتكرة ... كل هذا كان ثمرة جهد اسلامى واحد نمى حصيلة التراث الاسلامى .

وقد ظلت أوربا حتى القرن الثامن عشر تستعمـل التدوين الآلى بشكل جدولى يسمونه «تابلاتور» ، وهذه الطريقة مأخوذة عن العرب .

ويؤكد المختصون فى دراسة التأثير الموسيقى العربى فى الفن الصقلى أن الأغانى والموسيقى الشوبية فى صقلية يبدو فيها التأثير العربى حيث تتجلى الأوزان العربية ، وتظهر نغمة « التعديد » الشعبية بصفة خاصة .

جمع الكتب

أول من أدخل « اليتيمة » للثعالبى الى صقلية ابن البر الصقلى الذى رحل الى المشرق وعاد به راويا عن شيخه : أبى محمـــد

إسماعيل بن محمد النيسابورى وتلقاه عنه تلميذه الصقلى : ابن القطاع .

ودخلت « المدونة » الى صقلية لدى فتحها ، كما درس الموطأ أيضا .

ودخل كتاب « التقريب » صقلية فى القرن الخامس وقد اضطر شيخ فقهاء صقلية فى عصره (عبد الحق) الى بيع حوائج من داره ليشترى هذا الكتاب ، فزادت قيمة الكتاب فى أعين الصقليين وتنافسوا فى اقتنائه .

وهناك درس ديوان المتنبى ودواوين شعراء المشرق .

وعرفت صقلية كتاب : مقدمة ابن بابشاذ ، وأدب الكتاب لابن قتيبة وكذلك كتاب العمدة الذى اختصره فيما بعد أحد الصقليين ، وكليلة ودمنة .

وقد كان من السهل أن ترتحل الكتب من القيروان الى صقلية ولهذا فليس ببعيد أن تكون كتب العسكرى والرومانى عرفت هناك .

وقد كان الخلفاء يدفعون فى الكتاب المترجم وزنه ذهبا فجمعوا الكثير من الكتب ولم يستطع شارل الخامس الملقب بالحكيم مجاراتهم فى ذلك .

وكما صنعت صقلية فى العهد العربى صنعت أيام النورمان واستوردت الكتب من الخارج مثل كتب المسعودى واليعقوبى ، والجيهانى وكتاب الجغرافيا لبطليموس وأرسيوس « والمجسطى » .

واذا كان الخلفاء يهتمون بجمع الكتب على النحو السالف فان تلك الهواية لم تقتصر عليهم بل شغف بها الشعب أيضا .

وكانت الوفود التى تفد الى صقلية تحمل أول ما تحمل الجديد من المؤلفات وتكونت المكتبات العامة والخاصة على نحو ماكان معروفا بالأندلس ابان نهضتها الاسلامية حتى وجد من ذوى

الدخل الضئيل من كان يحرم نفسه جيد الطعام وغالى الثياب ليتمكن من شراء الكتب، كما حدث للقاضى « عبد الحق » السابق ذكره •

وقد ساعد انتشار صناعة الورق وشهرة صقلية به على كثرة انتساخ الكتب المشهورة فى المشرق والمغرب العربى ونتيجة لهذا كثر المتعلمون وصار الشعب يعرف القراءة والكتابة فى الوقت الذى كان أرفع الناس مكانة فى أوربا ـ فيما عدا رجال الدين ـ لايعرفها •

ومع كثرة البساتين كثرت المكتبات ، وطابت القـراءة بين طرقات البساتين •

يقول أديب لحود : « فلما طما بحر العمران والحضارة فى الدول الاسلامية وكثرت المدارس وعظم الملك آنتسخت الكتب وملئت بها الخزائن والقصور وتنافس أهل الأقطار فى ذلك » •

الترجمـــة :

حفل التراث العربى بأضخم ثروة علمية أسهمت بنصيب وافر

حفل التراث العربى بأضخم ثروة علمية أسهمت بنصيب وافر فى مجالات التقدم الحضارى فقدم العرب للانسانية ما عجزت جميع الأمم عن تقديمه وذلك بفضل كتبهم التى تقوم على تفكيرهم الشخصى أو التى كانت نتيجة بحوثهم المتصلة وتنقيبهم فى آثار سابقيهم فقد امتازت الحضارة العربية بتقدير الحضارات السابقة لها واحترامها وفى نفس الوقت بالعمل على الاستفادة من كنوزها باعتبارها تراثا تملكه الانسانية جمعاء ولم يضن الخلفاء على الكتاب المترجم بدفع ثمنه ذهبا •

ولهذا كان المسلمون يمسكون طرفى الحضارتين اللتين باعد بينهما الزمن : حضارة قديمة ظلت مجهولة أمدا طويلا ، وحضارة

حديثة يمكن القول أنها الجنين الشرعي للعلماء المسلمين وهنا كان دورهم الخالد في تطعيم الحضارة الحديثة بمنتجات الحضارة القديمة ، ولم يتقدم الأوربيون الا حين صمموا على رفع أكفان الجهل عن كواهلهم فيمموا شطر العرب .

يقول جوستاف لوبون : « ان ما حققه العرب في وقت قصير من المبتكرات العظيمة لم تحققه أمة .. وانهم أنشأوا دولة تعد من أعظم الدول التي عرفها التاريخ وانهم مدنوا أوربا ثقافة وأخلاقا وان الأمم التي سمت سمو العرب وهبطت هبوطهم نادرة وانه لم يظهر كالعرب شعب يصلح ليكون مثالا بارزا لتأثير العوامل التي تهيمن على قيام الدول وعظمتها وانحطاطها » .

ويقول أيضا : « ولم يتقيد العرب في دراسة الحضارات السابقة لهم بمثل التقاليد التي أثقلت كاهل البيزنطيين منذ زمن طويل بل كانت هذه الحرية من أسباب تقدمهم السريع » .

وشرعت الكتب تترجم من اللغة العربية ـ ذات الشهرة الفائقة ـ ورأينا أمثال : فردريك الثاني ، وجيرارد الكريموني ، والأمير يوجين البلرمي الذي لقب بالفيلسوف لسعة اطلاعاته . وأرستيبو وزير جيوم الأول . رأينا هؤلاء وأمثالهم يعكفون على دراسة تراث اللغة العربية فترجم يوجين من العربية الى اللاتينية المجسطي والبصريات لبطليموس ، وكليلة ودمنة مستعينا بمن يعرف العربية مثله ، كما ترجم احدى الملاحم اليونانية ووضع نصا لاتينيا لكتاب العين . Opcico .

أما فردريك فبتشجيعه ترجمت مؤلفات أرسطو وابن رشد فترجم شروح ابن رشد وتفسيراته الطبية ، وجزءا من النفس لأرسطو .

وغزت الترجمات جامعتي « بولونيا » ، وباريس وأعجب بفلاسفة العرب وجعل من جامعة نابلي أكاديمية لنقل العلوم العربية الى العالم الغربي .

وترجم جيرارد الكريموني المجسطي ومؤلفات أبقراط وجالينوس وترجم مؤلفات الكندى وكتاب ابن سينا القانون (فى الطب) وأكثر من سبعين كتابا عربيا فى شتى الفنون وترجم مؤلفات أرسطو كما ترجم كتاب « السبعينى » ٠

أما دانته الشاعر الايطالى انعظيم فقد اطلع — رغم حقده على العرب — على مؤلفاتهم بفضل أستاذه الذى قيل : انه كان يجيد العربية وهو « بروفيمو لاتينى » ولهذا ظهر التأثير واضحا فى « الكوميديا الالهية » التى تعتمد على قصص الاسراء والمعراج الاسلامية وما جاء فى كتب « ابن العربى » كما قرر العالم الاسبانى « ميجل آثين بالاثيوس » ٠

يقول لكلير : « أمام هذه الحقائق نستطيع أن ندرك أية ثورة فكرية بعثتها فى الغرب حركة الترجمة من العربية الى اللاتينية وأية فائدة جناها العلماء منها فكانت هذه الترجمات أداة جوهرية للتقدم وانتشار العلم العربى المنتعش » ٠

وقد زاد عدد الكتب التى ترجمت الى اللاتينية فى هذه الفترة عن ثلاثمائة كتاب ٠ من ذلك ما ترجمه أرستبس من محاورات أفلاطون : الفيدون ومنيون ٠

وسافر اديلارد أوف باث الانجليزى الى صقلية ليعمل على ترجمة الكتب الرياضية والعلمية ٠

ويذكر مؤلف احدى قصص البطولة كتابا عربيا كأصل أخذ منه روايته ٠

وترجم قسطنطين رئيس مدرسة الطب (سالرنو) الى اللاتينية أهم مؤلفات العرب الطبية وهو أول من أنشأ الحركة العربية الهامة لترجمة المؤلفات العربية الى اللاتينية كما ورد فى الموسوعة البريطانية ٠

وهكذا قامت صقلية بدور كبير بوصفها ملتقى ثقافتين ورائدة فى مجال التفوق يقول فيليب حتى : « وعلى الاجمال فان صقلية تعد ثانية بعد اسبانيا من حيث الدور الذى لعبته فى نقل الثقافة الى الغرب ولكن دورها دون شك يفوق الدور الذى لعبته سوريا زمن الحروب الصليبية ·

تقول الدكتورة نجلاء عز الدين :

« أما اعتماد أوربا على الحضارة الاسلامية فخير دليل عليه رجل يمثل أوربا فى ذلك العصر هو جيرارد الكريمونى المترجم الذى يذكرنا بأن روح التقدم كانت تنطوى بمقدار كبير على الحكمة فى جمع ثمار الحضارة الاسلامية ·

وفى « مقدمة تاريخ العلم » لسارتون ··· « بيان تفوق اللغة العربية فجميع الاكتشافات الجديدة والآراء الحديثة نشرت بالعربية » ·· التى كانت آنذاك « الوسيلة للتقدم العلمى » ·· ولم يسع سارتون الا أن يعلق على ذلك قائلا : « ان الانتقال من الحضارات الأخرى الى المدنية العربية الاسلامية ·· يكاد يشبه الانتقال من الظل الى الشمس المشرقة ومن عالم ناعس الى آخر يتفجر بالنشاط » ·

وقد سار ابن فردريك على طريقة أبيه ثم استولى بعده شارل دانجو فنحى منحى ملوك النورمان السابقين فى تشجيع وتنشيط العلوم العربية حيث ترجمت فى عهده موسوعة الرازى الطبية الكبرى الى اللاتينية ·

منزلة اللغـــة العربية

لم تنتصر لغة فى العالم كما انتصرت اللغة العربية فكل لغـــه محلية فى أى بلد يونانية أو رومانية لم تمت أما العرب فقد اكتسحت لغتهم كل اللغات المحلية وصارت لغة العلم والتخاطب والسياسة ، وظلت لغة حية بصقلية مدة طويلة ٠ ولعل سر حيويتها أنها لغـة القرآن ٠

وقد كان من المحتم على كل من يرغب فى الالمام بثقافة عصره أن يجيد اللغة العربية ٠

ورأينا الأوربيين يتسابقون الى معرفتها بغيـــة الوصـــول الى كنوزها الفكرية فتعلمها فردريك الثانى ، وجيرارد الكريمونى وروجر الأول والثانى وغليالم ٠ ولهذا اهتموا بالترجمة ، ورأينـــا روجر يكتب بها مراسيمه الى جانب اللاتينية واليونانية وعلى ذلك سار خلفاؤه فدرس وليم الثانى اللغة العربيـــة وما زالت آثار براءات ملوك النورمان تحمل اللغة العربية وكذلك النقود التى كانت تحمل صيغة « لا اله الا الله » ٠ وشهدت الآثار بذلك ففى نورمبرج رداء حريرى كان يلبسه ملوك صقلية وهو مطرز بكتابات عربية كوفية ٠ وتشهد آثار مقابر الملوك التى تحمل اللغة العربية والتى كشفت حديثا بشيوع اللغة العربية ٠ وعلى المستوى الجامعى كانت اللغـة العربية لغة المناهج والدراسة ٠

وقد عاشت آثار اللغة العربية فى بعض الألفاظ الصـــقلية والايطالية وما تزال بعض أماكن صقلية تحمل أسماء عربية ولا سيما اسماء القلاع والمراسى والشوارع ·

ويقول رينالدى : « ان الجزء الأعظم من الكلمات العربية الباقية فى الايطالية التي تفوق الحصر دخلت الايطالية لا بطريق الاستعمار العربى بل بطريق المدنية ·· ثم أشار الى المدرسة التى أسستها جنوة سنة ١٢٠٧ م لتعليم اللغة العربية وآية ذلك وجود ألفـاظ عربية فى اللغات العامية الايطالية · وقرر أن معاجمهم لا تزال تحفظ كثيرا منها » وظلت اللغة العربية لغة الأدب العالمى ·

ولم يكن ملوك صقلية وأمراؤها عربا فى ثقافتهم فقط بل فى حياتهم ولباسهم ·

وظهرت اللغة العربية فى الألقاب مثل : أمير الأمراء ، والقائد·

ومنذ دخول العرب صقلية وهى تطبعها بالطابع العربى فلم يقدر لها أن تنعم بعهد يضاهى العهد الاسلامى بها ·

يقول المؤرخ الأمريكى : « أوثر لابس » :

« أعترف بأننا مدينون لكم معشر العرب وأنتم الدائنون ··· يرجع الناس بأصول مدنيتنا الى المدنية اليونانية والرومانية معأن آثارهما كانت فى زوايا النسيان وفى أعماق العصور المظلمة ولو لم يقدر لهما أن تناولتهما أيدى العرب لأصابهما الوهن والاضمحلال »·

يقول جورج سارتون فى « مقدمة تاريخ العلوم » :

« كانت اللغة العربية من منتصف القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادى عشر لغة العالم والحضارة البشرية » ·

وقد روى لنا دوزى رسالة الكاتب « الفارو » الذى يقـــول آسيا :

« ان أرباب الفطنة والتذوق سحرهم رنين الأدب العربى فاحتقروا اللاتينية وجعلوا يكتبون بلغة قاهريهم دون غيرها » ..
ويقول آخر :

« أن اخوانى المسيحيين يعجبون بشعر العرب وأقاصيصهم ويدرسون التصانيف التى كتبها الفلاسفة والفقهاء المسلمون ولا يفعلون ذلك لادحاضها والرد عليها بل لاقتباس الأسلوب العربى الفصيح فأين اليوم – من غير رجال الدين – من يقرأ التفاسير الدينية للتوراة والانجيل وأين اليوم من يقرأ الأناجيل وصحف الرسل والأنبياء .. وا أسفاه ! » .

وفى دائرة المعارف : « والصقليون .. يختلفون لهجة عن الايطاليين فان فى لغتهم كثيرا من الكلام العربى » .

التأليف والبحث العلمى

نشطت صقلية نتيجة اهتمام المسلمين بمختلف أوجه العمل بها وانضاف الى ذلك قوة مركز اللغة العربية ‥ ولهذا شرعت صقلية فى فترة استقلالها عن موارد الثقافة القيروانية والقاهرية تعتمد على تصانيف علمائها ٠ فبعد أن كانت فى أول عهدها تستمد العون الثقافى من القيروان ‥ ، والقاهرة تكونت شخصيتها ووقفت الى جانب تلك المراكز الثقافية : القيروان ، والقاهرة وقرطبة ٠ وأصبح علماؤها يهاجرون الى الأندلس ومصر وشمالى افريقيا فى سبيل طلب العلم وغمرت الأسواق الأوربية بتبادل الأفكار والمعارف الى جانب تبادل السلع وتبودلت الرسائل الثقافية وكلها تدور حول التراث الموروث الذى يشترك فيه كل بلـــد اسلامى وكان للعلماء تقديس حتى لقد قيل :

ان الكتابة أشرف المراتب بعد الخلافة ٠

وقد كان مؤلفو مراجع الصقليين الثقافية اما شرقيـــون أو أندلسيون أو قيروانيون أو صقليون ‥ « وقد كانت الكتب ترحل كالناس فى بطء وتتحرك من مكان الى آخر فى أناة » ٠

وضمت صقلية عدة أكاديميات عامرة كان روادها الأول أساتذة مسلمون وانتشر العلم فى المسجد والقصر والكتاب ٠

واتخذ العلماء مجامع علمية تشبه ـ الى حد كبير ـ مجامع اليوم واذا كان ابن حوقل يتحامل على الصقليين لكثرة المساجد لديهم

كما يتحامل عليهم لكثرة متعلميهم أو كما يقول « مدعى التعليم » .. فانى أستطيع أن أرد تلك الحملة القاسية التى تبدو من خلال حديثه .

أما كثرة المساجد فانها ليست دليل غرور وادعاء كما يذهب بل هى ضرورة استلزمتها الجلسات العامرة بالمناقشات العلميــة المتواصلة .

أما كثرة المتعلمين بحجة الهروب من الجيش فان ذلك ليس دافعا وجيها فى نظرى والذى أراه حقا أن كثرتهم كانت وليدة ظروف مجتمعهم فقد أتاح لهم سهولة الحصول على الورق ، وسيادة لغتهم، ومعرفتهم بالحاجة الى تكوين مجتمعهم الجديد وتحــديد ملامح شخصيتهم المستقلة بل والمتنافسة مع الأقطار الاسلامية الناهضة وبالتالى الرافعة مصابيح الفكر وسط غيوم العصـــور الوسطى المتراكمة .. كل هذا دفعهم الى التعلم ، والتعليم .
ويتحدث رينان عن أثر تلك المؤلفات قائلا :

(أدى كل ذلك الى افعام المكتبات الأوربيــة الخاوية الفقيرة بكنوز لا تفنى من العلم الذى أنتجته قرائح العرب وكان من نتائجه انتشار الثقافة والترعرع العلمى فى البيئة الأوربية بأسرها كما رفع مستوى شعوبها الى أفق التمدن الذى نشاهدها عليه اليوم » .

ومن الظواهر التى عاصرت أيام المسلمين وأيام النورمان هى تساوى النظرة الى العلماء بغض النظر عن جنسياتهم أو أديانهم .

ومما تقدم رأينا كيف أسهم غير المسلمين فى الترجمة وتفهــم التراث العربى . وفى نهاية حديثى يجدر أن أشير الى بعض متفوقى المسلمين فى صقلية أمثال : أسد ابن الفرات (من أصحاب مالك) ، المهندس محمد بن عيسى بن عبد المنعم ، الشاعر ابن حمد يس ، الشريف الادريسى الجغرافى الكبير ، ابن القطاع صاحب الدرة

الخطيرة والقضاعي ، والشافي ، والسمنطارى • هذا الى جانب كثير غيرهم تضيق عن ذكرهم صفحات البحث •

وقد عمل المسلمون فى صقلية بنظام البعثات حيث نظم الادريسى بمساعدة روجار بعثات العلماء الجغرافيين الى الشرق والغرب وكان نتيجة ذلك دراسات جغرافية ضخمة تضمنتها موسوعته الكبرى : « نزهة المشتاق » •

كما عرفوا نظام الرسائل العلمية كتلك الرسالة فى التاريخ الطبيعى حول تربية البزاة •

ومن حديث المازرى عن نفسه فى كتابه « المعلــم » نعرف أن المدرسين كانوا يملون طلابهم العلم وعلى الطلبة تدوينه ثم ينشر بعد ذلك كتاب باسم « الأستاذ الذى أملى » •

والذى يشهد بعلو كعب العرب فى الانتاج الثقافى هو احتضان ملوك النورمان لهم وحسن معاملتهم اياهم اذ لمسوا تقدمهم فى الفنون والعلوم والصناعات ورأوا أن تشجيعهم ســيعود عليهــم بالنفع العظيم •

ونظرا لانتشار اللحن اهتمت المكاتب وحلقات الدروس بضبط الألسنة • وتيسر لصقلية مشاهدة نهضة ثقافية عندما خلدت الى الراحة ونفضت يدها من الحروب وشرعت البذور الثقافية تنمــو داخلها وخارجها فى أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس •

أما فى العهد النورمانى فقد انكمشت الدراسات الدينية فبعد أن كان المسجد عامرا بدراسات الفقه ، واللغة والأدب اقتصر على الدراسات العلمية • الا أنه يمكن أن يقال : ان صــقلية شاهدت ازدهار ثقافة واسعة الجنبات حيث اجتمع الى ذكريات الحضارات الماضية منابع ثقافة متدفقة فامتزجت الثقافة الشرقية بتراث اليونان والرومان وتكون من ذلك كله لون خاص ذو ملامح أصيلة •

وكان للانتعاش الاقتصادى والاستقرار الاجتماعى والسياسى وتكامل حلقة الاتصال الثقافى بين الأقطار الاسلامية فى الأندلس وصقلية والشام ومصر كان لذلك كله فضل ازدياد النشاط الفكرى فى غضون القرن الثانى عشر ـ وتحت سماء صقلية قدر لأولئك اللغويين ان يواصلوا ابحاثهم القيمة أمثال : على بن حمزة ، ابن عبد البر ، صاعد ، ابن القطاع ، أبن مكى . كما قدر لناقد كابن رشيق أن يصقل الذوق الادبى ، ولفقهاء مثل : عبد الحق والسمنطارى ، وابن مكى أن ينموا الدراسات الدينية ، وغزت مؤلفات عديدة آفاق العالم الاسلامى مثل : (المتبدا) (فى ثمانية آلاف بيت)، وتثقيف اللسان وبهذا أتيح لمترجمين كفردريك الثانى ، وجيرارد الكريمونى ، ويوجين . وقسطنطين (رئيس مدرسة سالرنو) ـ قدر لهؤلاء وغيرهم أن ينقلوا ذلك التراث الضخم الى الانسانية فى كل مكان .

وفى مجال الحديث عن البحث العلمى يتشعب بنا الطريق الى شعبتين :

أما الشعبة الأولى فهى الجانب النظرى ، أما الثانية : فهى الجانب العملى

(١) « الجانب النظرى »

(ا) التفسير والقراءات :

صحب انتصار الصقليين اعتزاز بما حققوه من نصر .... وشغفوا بالتحصيل رغبة منهم فى تعزيز موقفهم الدينى ازاء الاتجاهات الدينية المعاصرة .

ومن أجل هذا أيضا كان دأب العلماء التحصيل والتمحيص وخاصة بالنسبة لأولئك الذين يتسرب الاسلام الى أعماقهم ويصافح شغاف أفئدتهم لاول مرة ، وحين تأكدت ذاتية صقلية تطلعت الى مركز علمى ينافس المراكز الاسلامية الأخرى .

وقد غصت حلقات المساجد بالعلماء وطلاب العلم ودارت المناقشات حيث كان متيسرا للتلميذ أن يتذوق ما يأخذه عن أستاذه بعد مناقشة وحسن استساغة ونتيجة لهذا ، ربما أطل من بين الرءوس رأس نابغة يعارض أستاذه أو ينبهه الى هفوة .

وفى العهد الاسلامى تمتعت الدراسات الدينية بنوع من العناية على عكس مالاقت فى أيام النورمان .

وقد زار ابن جبير صقلية ورأى مجالس تعليم القرآن الكريم بالمساجد ومن بين المفسرين : محمد بن عبد الله المقرىء .

ومنهم أيضا ابن ظفر الذى كتب فى التفسير والعظات وقد كانت زيارته لصقلية متأخرة ، مما دفع بالدكتور «احسان عباس»

الى ان يتخذ من هذه الظاهرة دليل عدم نمو الدراسات الدينيـة بصقلية لأن تلك الزيارة كانت فى عهد متأخر

والذى أراه أن ظواهر الفتح والاستيطان الاسلاميين بصقلية تؤكد بل تستلزم نهضة الدراسات الدينية بنوع خاص وتعليل ذلك وارد فى صدر حديثى ٠

هذا الى جانب محاربة الاسرائيليات الدخيلة على التفاسـير والتى أسهم فيها بنصيب كبير أولئك الذين كانوا روادا فى الحقل الثقافى الصقلى وهم المعمرون الذين وردوا مع الفتح من افريقيا ٠

وقد كانت قراءة نافع هى الشائعة منذ دخل القيروان محمد بن عمر بن خيرون المغافرى الأندلسى الذى كان يسير على مذهب المشيخة من أصحاب ورش وانتشر ذلك فى القيروان وسائر المغرب ٠

وكثر القراء فى عصر عبد الحق والسمنطارى ٠ وأشهـر المقرئين فى صقلية نفسها : ابن بنت العروق الذى تتلمذ على يديه ابن الحصار القرطبى الذى ذهب بعد ذلك للاقراء بالمسجد الجامع بقرطبة ٠

وكذلك ابن أبى خراسان الذى نبغ فى النحو أيضا ٠

وكتب عبد الله الصقلى (حجة الدين) كتاب « خير البشر بخير الشر » ، وكتاب « الينبوع » فى التفسير ، ونجباء الأئمـة ، والحاشية على درة الغواص

ب ـ الحديث

من أبرز كتب الحديث بصقلية : الموطأ ، والملخص أما الموطأ فهو موطأ مالك ومن أشهر دارسيه الفقيه المحدث : السمنطارى ٠ أما « الملخص » فهو التلخيص الذى جمع فيه القابسى ما اتصل اسناده من حديث الموطأ وقد سماه الملخص بالكسر أما تلامذته فسموه بالفتح ٠

ومما يدل على اهتمام الصقليين بالدراسات الدينية أن ورود الكتاب استحق التاريخ فالصحاح لم يصل اليهم ولهذا فان ابن القطاع يصرح بذلك حين يسأله المصريون عن الكتاب .

وقد انصرف السمنطارى الى تدريس الحديث بعد أن درس على يد الفرضى ، والحصائرى بصقلية وهاجر فى سبيل ذلك من سمنطار الى بالرم العاصمة الفكرية والسياسية ورحل رحلات عديدة تجول فيها من الحجاز الى اليمن والشام وفارس وخراسان .

وقد اهتم بالموطأ اهتمام عبد الحق بالمدونة كما كان لعبد الحق جهوده فى الحديث .

ومن الطريف أن أحد تلامذة السمنطارى روى فى مصر حديثا رواه فيها أحد تلامذة عبد الحق .

ومن تلامذته ابن الحذاء القيس الصقلى ، وعبد الكريم بن عبد الله بن محمد المقرىء الواعظ .

وقد كان عمار بن المنصور الطلبى ، وابن بكى فقيهين محدثين .

وفى القرن الرابع سافر أبو عبد الله محمد بن عيسى بن مطر الى المشرق وكتب الحديث

ج ــ الفقه وعلم الكلام

دخلت « المدونة » فى الفقه المالكى فى اثر الفتح الاسلامى لصقلية وحول تلك المدونة دارت حلقات النشاط العلمى التى يعقدها الفقهاء يشرحونها ويختصرونها ويوضحون الغريب منها ، بل ربما نسجوا على منوالها ومن هؤلاء لقمان بن يوسف الغسانى الذى درسها وأخذها فى اللوح مدة أربع عشرة سنة اقامها فى صقلية .

وألف « ابن جعفر القصرى » كتاب « تجديد الايمان وشرائع الاسلام » وضم ماينيف على ستين جزءا حول المعجزات ، وألف

ابن ظفر الصقلي « سلوان المطاع » معونة الاشراف فى الفقه المالكى ، وتأكدت شخصية الصقليين الفقهية فى أواخر القرن الرابع فألف الحصائرى وأبو بكر بن أبى العباس ومن تلامذتهما ابن يونس وعبد الحق والسمنطارى ٠

ومع القرن الخامس كان بين أيدى الصقليين كتاب «التقريب» وهو اختصار مدونة مالك فى الفقه وقام بالتلخيص : البرالى البلبنسى ٠ وممن قرأوه : عبد الحق شيخ فقهاء صقلية والذى باع أشياءه فى سبيل شرائه مما حدا بأهل صقلية أن يتنافسوا فى الحصول على الكتاب حتى قال بعضهم :

من أراد أن يكون فقيها من ليلته فعليه بكتاب البريلى ٠

أما اتجاه دراسات الفقه فقد كان مذهب الكوفى والأحناف سائدا فى افريقية ثم قدر لمذهب مالك أن يغزو تلك الآفاق هناك ثم بدأ يوسع نطاقه الى صقلية على يد أصحاب سحنون حيث كان عبد الله بن حمدون (أو حمدوية) من أوائل فقهاء صقلية ،وكذلك دعامة بن محمد الفقيه ومحمد بن ميمون بن عمرو الافريقى ، وسالم بن سليمان الكندى الذى انتشر عنه مذهب مالك فى صقلية والذى ألف كتابه « السليمانية » نسبة اليه وربما هزم مذهب أبى حنيفة مذهب مالك مرة أخرى

وقد ألف البرادعى كتابه التهذيب فى اختصار المدونة وغيره وانتشرت مؤلفاته ودراساته حول مؤلفه هذا شتى المناظرات ٠

ومن الفقهاء الصقليين الذين آثروا البقاء بها :

ابن الحكار الصقلى ، وابن مفرج وابن الكلاعى وابن القابلة ٠

أما من غادروها عند الفتح فمنهم أبو القاسم الرقوس ، وأبو البهاء عبد الكريم بن عبد الله بن محمد ، وأبو الحذاء القيس الصقلى ٠

وعلى رأس هؤلاء وأولئك عبد الحق الذى نال شهرة داخلية وخارجية والذى لقى الجوينى بمكة وراسله وكان من تلامذته : محمد بن نعمة الأسدى وابن الخياط (فى القيروان)

وعبد الرحمن بن المعافرى ، وابن قطرى الزبيدى (فى مكة)

وثابت الفقيه الصقلى (الذى هاجـر الى الأندلس) ومن الأندلسيين أيضا ابن الحصار ، وأبو عبد الله الميورقى وابن ابى الدنيا القرطبى ، وكثير من الطلبة الأندلسيين ومن آرائه الحازمة افتاؤه بعدم جواز الصلاة خلف من يظهر فى قراءته النـون الخفيفة أو التنوين عند الياء والواو وعـد ذلك لحنا قياسا على من يتكلم فى الصلاة متعمدا •

ويلى عبد الحق : الفقيه عتيق السمنطارى الـذى وصفت تآليفه الفقهية بأنها فى غاية الترتيب والبيان •

وبلغ من اهتمام الفقهاء بالمدونة أن شرحها بتفصيل ابن الحكار الصقلى فبلغ نحو ثلاثمائة جزءا

وجاء من بعده ابن فروج الصقلى (أوابن مفرج) ليناقش ماكتبه البرادعى فى مناظرة ابن الحكار •

وقد مال بعض المالكيين الى مذهب الأشعرى تأييدا لأهـل السنة وحربا على المعتزلة •

علوم اللغة

نشطت تلك الدراسات بفضل الوارد من المشرق أو الأندلس وبفضل تابعيهم ممن أخذوا عنهم من الصقليين فقد ذهب العالم اللغوى « على بن حمزة » الى صقلية واستوطن بالرم وشرعت كتبه ـ فى الرد على الجاحظ فى الحيوان وعلى ثعلب فى الفصيح ـ تعم آفاق صقلية • كما درس ديوان المتنبى • وقد كان هذا الديوان ذا أهمية فى ثقافة العالم اللغوى ابن عبد البر الذى درسه على ابن رشدين

بمصر ثم أخذه عنه تلامذته بصقلية كما رووا « مقدمة ابن بابشاذ » في النحو • وقد درس « أدب الكتاب » لأبن قتيبة فى كل من صقلية ، والأندلس •

ومع قدوم ابن رشيق الناقد العربى الكبير دخل كتابه«العمدة» ودرس فى مدينة مازر واختصره عثمان بن على الخزرجى وقد كان يسيرا على كل كتاب يصل الى القيروان أن يصل الى صقلية •

وحين انتشر اللحن فى ألسنة العامة بصقلية وخاصة فى كتاب الله وحديث الرسول انعقدت حلقات الدروس لضبط الألسنة ونتيجة للنشاط الدائب اشتهر علماء لغويون مثل موسى بن أصبغ المرادى القرطبى •

وقد أقام القرطبى فى صقلية بعد جولاته الدراسية فى المشرق والعراق وبعد لقائه بابن دريد • ونظم المبتدا » فى ثمانية آلاف بيت •

ومن أشهر المهاجرين الى صقلية : صاعد اللغوى الذى أقام ببلرم • وفى مدرسة « محمدبنعلىبنالحسين بن البر » اللغوية تخرج : أبو العرب وعمرو بن خلف الصقلى وابن القطاع وقوى اتجاه هذه المدرسة بانضمام ابن رشيق لها •

ومن بين تلامذته من هم من خارج صقلية مثل :

أبو محمد عبد الله بن ابراهيم الصيرفى ، وأبو الطيب عبد المنعم بن عبد الله القروى وأبو القاسم عبد الرحمن بن عمر القصيرى •

وقد ألف تلميذه ابن مكى « تثقيف اللسان » أشهر كتباللغة فى صقلية

هـ ـ الفلسفة

من المعروف أن المنصور بن أبى عامر مؤسس الدولة العامرية فى الأندلس غضب فى أخريات أيامه على الفلاسفة ونتيجة لذلك

هاجر سعيد بن فرحون بن مكرم التجيبى القرطبى الى صقلية وهو صاحب رسالة فى المدخل الى الفلسفة اسمها : « شجرة الحكمة » وأبحاث فى الجوهر والعرض وهجرة فيلسوف كهذا من بلد يعتبر قاعدة النشاط الفلسفى آنذاك بما تيسر له من احتضان أعـلام الفلسفة كابن رشد وابن طفيل وابن باجه وغيرهم وهجرته الى صقلية كسب كبير لها وثراء ضخم للدراسات الفلسفية بها وتغذية قيمة للفلاسفة الصقليين .

وقد عرف الصقليون كتب أبى حيان التوحيدى فى التصوف والفلسفة وكذلك رسائل اخوان الصفاء .

وعلى غلاف كتاب الاقناع جملة تشهد بتفهم كاتبها الانتـــاج التوحيدى تقول العبارة : « ابتدأ أبو حيان كتابه صوفيا وتوسطه محدثا وختمه سائلا ملحفا .

وهناك تجرى الأخبار حول ورود كتب ابن سينا والغزالى الى صقلية وحول ذهاب « على بن حمزة » ورواية كتبه فى الرد على ابن السكيت فى اصلاح المنطق .

وقد كان روجار يشجع العلمـاء وكان محبا لأهل العـــلوم الفلسفية .

ومن تاريخ جامعتى بولونيا وبادوا يتبين اهتمامهما بالفلسفة حتى قيل : انهما كانتا قلعة حقيقية للفلسفة الرشدية ومن هذين المركزين انتشر تأثير فلسفة ابن رشد فى أنحاء شمـــال شرقى ايطاليا وكذلك البندقية . ومنذ اعتلى فردريك الثـــانى عرش الامبراطورية (١٢١٥م) وهو يحرص على توثيق عراه بالعــرب وموالاة اهتمامه بالفلسفة الاسلامية وحرص على الاطلاع على كل جديد فيها فأجاد معرفتها وأسس جامعة نابلى وجعلها أكاديمية لنقل آثار العرب وترجم شروح ابن رشد لأرسطو وترجم الجزء الأول من النفس وكذلك تفسيرات ابن رشد الطبيعية

ويروى أنه كان معتزا بأبناء ابن رشد .

وحين نتبع جورج سارتون فى كتابه الضخم « مقدمة لتاريخ العلم » حركات الوعى الثقافى خلال رحلة زمنية طويلة كان النتاج العقلى للحضارة الاسلامية فى الطليعة الاولى وآية ذلك أنه حين قسم البحث الى أنصاف قرون حملت تلك الحقبة أسمـــاء كثيرين من علماء العرب وفلاســـفة الاسلام فهو يتعرض للقرن التاسع مثلا فيراه قرنا اسلاميا بسبب تفوق العلمـاء والباحثين المسلمين بطريقة عارمة ولم يكن هناك جديد تحويه الكتب الأخرى من لاتينية ويونانية وعبرية اللهم الا القليل

ولعل فى هذا ما يدحض المزاعم القائـلة بعـــدم تفلســف العرب واكتفـــائهم باجترار فلسفة اليونان اذ أنه من الثابت أنهم خلعوا على ماقرأوه تمثيلا وهضما واضافة وتجديدا ويؤيد ذلك ما أقره سيديو بقوله :

« فان جميع الدروس بمدارس أوربا فى القرون الوسطى مستمدة من تآليف العرب »

وفى الوقت الذى كان يكتفى فيه الأوربى بقراءة ماأمامه ثم تكريره آليا كان المسلم يعتمد على قاعدة تقول : جرب وشاهـد ولاحظ تكن عالما »

واستحق فلاسفة المسلمين أن يحتلوا منـزلة الاســـتاذية بالنسبة للأوربيين فان أساتذة جامعة مونبلييه لم يكفوا عن شرح كتابات ابن سينا الا منذ خمسين سنة فقط .

ولاغرو فان المسلمين همالذين علموا أهلأوربا كيف يتفلسفون نتيجة منحهم تراث اليونان الى جانب اضافات المسلمين ولهذاتحتم على الأوربى لكى يتفلسف أن يجيد اللغة العربية التى كتبت بها هذه الفلسفة .

يقول سيديو : « ان العرب كانوا أساتذة أوربا كلها فى جميع فروع المعرفة فقد انتشرت اليها علومهم من مصر وسوريا ابان الحروب الصليبية ومن صقلية ونورماندیا »

وقد كان للنشاط الواسع فى الأفكار الاسلامية واتحاد وجهة هذا النشاط أثره فى نمو الدراسات الفلسفية وتغذية دراسات المنطق واللاهوت التى ارتبطت بهما نشأة جامعة باريس،
(وكذلك دراسة القانون التى ارتبطت بهما نشأة جامعة باريس) وكذلك دراسة القانون التى ارتبطت بها نشأة جامعة بولونيا

ويقول سلامة موسى :

« فضل العرب على النهضة الأوربية لايرجع الى أنهم نقلوا اليها الثقافة الاغريقية وانما لأنهم وضعوا لهم أساس الثقافة العلمية وهى التجربة وهذه الثقافة تخالف النزعة الأغريقية القديمة التى كانت تقتنع بالتفكير الفلسفى المجرد وتعالج العلم كأنه مضاربة فكرية لا علاقة له بالتجربة »

وقد أدهش الفيلسوف العربى « ابن سبعين » الأوربيين بكتاب « لابد للعارف منه » ولهذا فقد راسله فردريك الثانى وأجابه على بعض مسائل فلسفية فى كتابه « المسألة الصقلية » (٤٩ صفحة)

وفى أكسفورد توجد نسخة خطية منه وقد تحدث عنه المستشرق أمارى متعرضا لرأى البابا فيه »

و ـ التصوف

كل من يحاول أن يحدد أصول التصوف فى صقلية اما أن يقرر أن المتصوفة سلكوا هذا النهج هروبا من عبء الجهاد والقتال واما سترا لهزيمة وفشل فى أمور الدنيا ٠

والذى أراه أن التصوف كان عبارة عن نظرة تفلسف الزهد الذى أقامه المتصوفة على الحياة الواقعية ونقاء الاتجاه المذهبى الفقهى فاجتمع المجاهدوالعابد ، والقاضىوالشريف فى تلك الرحاب الطاهرة ، ذات الابعاد العميقة ٠

وقد خضع التصوف لظروف خارجية حيث تأثر المتصوفة بزَهاد المشرق حول البيت الحرام ، وأخرى داخلية نتيجة التشاؤم من المعطيات السائدة التى لم تكن تنبىء بخير فيما يخص النظم الاجتماعية .

وشعر المتصوف بثورة داخلية تمور فى أعماقه وتدفعه للاصلاح وآية الجدية فى هذا الاتجاه هو الاختلاط بالفقه .

ومن أوائل هؤلاء عبد الرحيم الصقلى ، وكذلك أبو محمد بن ابى زيد صاحب كتاب « الكشف وكتاب الاستظهار » . ومن أقدمهم أيضا : محمد ابن ابرهيم بن موسى المصرى الصقلى الذى حضر مجالس الجنيد فى العراق حين ذهب فى طلب الحديث . ومنهم الشيخ المحقق أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله البكرى الصقلى الذى درس فى القيروان وقد ألف عدة مؤلفات فى التصوف منها « كتاب للبرهنة على وجود الله »

وكتاب « أنوار الصقلى » ، «والشرح والبيان »، « وصفة الأولياء ومراتب أحوال الأصفياء » .. الخ .

ويبدو من منهجه أنه يعتمد على الكتاب والسنة وطريقة السلف الصالح كما أنه يميل الى مذهب أهل السنة .. ويأتى بعده عتيق السمنطارى المحدث الفقيه الزاهد وصاحب كتاب « دليل القاصدين » .

الى أن دخل فى الزهد غير الزاهدين مع تقدم الزمن .

ومما لاشك فيه أن ذلك الجانب الروحى الشفاف من النفس الانسانية كان كالخيط الذهبى المتوهج الذى يندر وجوده بين ظلمات العصور الوسطى .

وقد أشار الاستاذ « نيكلسون » فى كتاب « تراث الاسلام » الى المشابهات بين أقوال الصوفية المسلمين وأقوال الصوفية الأوربيين من الأقدمين مثل اكسهارت الذى نادى كما نادى ابن

العربى بوجود الله كما أن نزعات دانتى الصوفية متأثر فيهـا بقصص الاسراء والمعراج وآراء ابن العربى ٠

يقول الأستاذ سلامة موسى :

« للعرب فضل على الكنيسة المسيحية من حيث ان الاسلام ظهر فجأة فى قوة وبأس يتحدى العالم المسيحى وكانت الكنائس فى هذين القرنين قد أوشكت بنزاعها بين المـذاهب أن تنسى التوحيد فجاء الاسلام يتحدى ويقاتل من أجل التوحيد » ٠

ز ـ الجغرافيا والرحلات ٠

الحديث عن النشاط الجغرافى فى صقلية يجب أن يبـدأ بالحديث عن الجغرافى العربى الكبير الشريف الادريسى فقد تقدم بهذا العلم تقدما لم يقتصر نفعه على المسلمين فقط بل تعدى ذلك الى درجة أن اتخذه الاوربيون أستاذا ومرشدا لهم فى هذا المجال فقدم بذلك للانسانية أجل الخدمات .

الشريف الادريسى :

هو محمد بن محمد الشريف الادريسى ولد فى سبته ودرس فى قرطبة ثم بدأت شهرته تغزو آفاق البلاد الاسلامية والمسحية٠ وقد رأى فيه الملك روجر الثانى مخايل الذكاء وملامح التفـوق العلمى فرعاه وكفل له كل مقومات العمل مما يؤكد تفوق المسلمين ومبالغة فى احترامه أوصى أن تكون كتبه المرجع العلمى الصادق للأبحاث التالية له ٠ وصنع له كرة فضية تمثل الكرة الأرضية بأقاليمها كلها كانت زنتها أربعمائةرطل رومى وقد وصفها الادريسى بدقة ٠ يقول سيبولد : « لقد قضى الادريسى شطرا من حياته فى اعداد أول خريطة عالمية صحيحة مبنية على الأصـول العلمية والحقائق الفنية الثابتة التى لاتختلف كثيرا عما هو معروف فى عهدنا هذا »

وفى المراجع الفرنسية ثـ ان كتاب الادريسى فى الجغرافيا يعتبر أعظم وثيقة علمية جغرافية فى القرون الوسطى • وأهله ذلك لأن يكون أستاذ أوربا طيلة قرون عدة •

وعن طريق هذا الكتاب يمكن التدليل على معرفة العرب لنظم البعثات فقد أرسل الادريسى وروجر بعثات من علماء أذكياء الى الشرق والغرب جنوبا وشمالا وصحبهم المصورون لتسجيل مشاهداتهم وأمرهم بالتقصى والاستيعاب وظل الادريسى يثبت ماينقلونه اليه فتكامل له هذا المصنف الضخم وكان الادريسى يشغل منصب رئيس « الدائرة الجغرافية » فى بلرم وينظمها وألف كتابا آخر الى جانب الكتاب الروجرى سماه « روض الأنس ونزهة النفس »

وقد رسم الادريسى خريطة عين فيها الأبعاد بين الاماكن بطريقة علمية سليمة التزم فيها الدقة •• « وقد أظهر الادريسى فى بحث المواد التى اتصلت به ونقدها وتحرى الحقيقة فيها رجاحة عقل ورحابة صدر وكشف عن فهم لبعض القضايا الهامة كادراكه لكروية الأرض »

وقد اعتمد على أقوال من أرسلوا الى الجهات التى وردت فى بحثه الكبير الذى سماه « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » كما اعتمد على مشاهداته الشخصية فى رحلاته العديدة وكذلك أحاديث الرحالة والتجار والحجاج ويعتبر هذا الكتاب من أقدم الكتب العربية المطبوعة ، ومن أقدم كتب الجغرافية عامة وقدترجم الكتاب الى اللاتينية ونشرت أقسام منه فى : ليون ، مدريد ، روما، بون وغيرها •

وأقدم ترجمة كانت فى بداية القرن السابع عشر الميلادى وترجمه أيضا « جوبير » الى الفرنسية وطبع فى باريس سنة ١٨٤٠ فى مجلدين وقد امتاز على سائر الرحالة المسلمين . فلم نر أحدا من سابقيه كتب عن أوربا ولم يتح له أن يلم بمشاهدات مثل أولئك

الرواد الذين أوفدوا من أجل هذا الغـرض الى أقصى اطراف مثل : اسكندناوه وكل من جاء بعده من العرب أو غيرهم أخـذ عنه . وقد حاكوه فى طريقة رسم الخرائط .

وأهم ما يمتاز به « نزهة المشتاق » غزارة مادته فىجغرافية صقلية والغرب والاستفادة من السياحات العديدة .. ومما كتبه بطريقة جيدة الغوص عن اللؤلؤ وكذلك حديثه عن الاخوة المغررين.

وقد أطلع العلماء المسيحيون فى العصور الوسطى على هذا الكتاب وتأثروا به واعتمد عليه الغربيون فى تقديم البلدان وخاصة بلاد الشرق الى أن تقدم علم الجغرافيا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

وتكفى شهادة أحدهم وهو البارون دى سلان الذى كتب فى « المجلة الاسيوية الفرنسية » (ابريل سنة ١٨٤١ م) يقول : « ان كتاب الادريسى لايمكن أن يوازن به أى كتاب جغرافى سابق له وان ثمت بعض أجزاء من المعمورة لايزال هذا الكتاب دليـل المؤرخ والجغرافى فى الأمور المتصلة بها

والجدير بالذكر أن أحدا لم يسبق الادريسى فى بيان الحقيقة الجغرافية عن منابع النيل العليا كما حفظت فى الخـرائط التى بقيت فى المتاحف الأوربية ومن هذه الخرائط واحـــدة محفوظة بمتحف سان مرتين الفرنسى وهى تحدد مسار النيل من البحيرات الى جنوب خط الاستواء بعد أن تاه الجغرافيـون فى متاهـــات الأخطاء حول وصف المنابع ، وتعليل الفيضان منذ هيرودوت أبى التاريخ كما أنه حسب محيط الأرض وقدره بأربعة وعشرين ألفا وخمسمائة ميل .

وقد كان للجغرافيين المسلمين فضل الاهتداء الى حقائق أخرى كانت خير مصحح للأخطاء الشائعة منذ اليونان وفى نفس الوقت هدت من تبعهم الى اكمال السير فى الطريق باعتبار أن الأبحاث الانسانية متصلة تتجه فى مسار واحد يقول الادريسى فى وصف

منابع النيل والبحيرات الاستوائية : « وهذان القسمان مخرجهما من جبل القمر الذى فوق خط الاستواء بست عشرة درجة وذلك أن هذا النيل من هذا الجبل من عشر عيون »

ومن المعروف أن كولومبس تصور أن الأرض تشبه ثمرة الكمثرى المستطيلة أما قيمتها فترتفع فى الهند وتقابلها قمة أخرى فى مكان آخر شبيه بمكان القمة الأخرى • وقد استوحى هذه الفكرة من خريطة الكردينال بطرس الايلى التى سماها « صورة الدنيا » وهذه الخريطة من الثابت أنها اعتمدت على مصادر عربية فهذا فضل للمسلمين فى كشف العالم الجديد • وأكثر من ذلك فان دائرة المعارف الفرنسية تقرر أن كولومبس اطلع على كتب المسلمين فى الجغرافيا والرحلات قبل قيامه برحلته

كما أن القول باستدارة الأرض والذى حطم اعتقاد الكنيسة فى العصور الوسطى ، التى كانت تعتقد عدم استدارتها أو دورانها وكانت تقول بتسطيحها ، الفضل فى هذا يرجع لجغرافيى المسلمين

وقد توقع الادريسى وجود أمريكا فى الطرف الثانى من الأرض قبل اكتشافها بقرون • ولهذا فان الدكتور (هوى — لن — لى) الأستاذ بجامعة بنسلفانيا أورد بعض الدلائل على أن العرب اكتشفوا القارة الأمريكية قبل كولومبس بأربعة قرون

ويقال ان فاسكوديجاما درس الخرائط التى وضعها العرب للبحار واعجب بها •

الرحلات :

كان من الأسباب التى دفعت المسلمين الى الاهتمام بالجغرافيا: رغبتهم فى الحج الى بيت الله الحرام ، وعدم خبرتهم بالأماكن التى يذهبون اليها من أجل العلم ، وكذلك البلاد التى يجبى منها الخراج •

ولهذا « كانوا من المجلين فى اكتشاف الشواطىء الافريقية واخترقت أساطيلهم التجارية البحار فنقلت البضائع من ثغور البحر المتوسط الى اسبانيا وفرنسا وايطاليا » واتصل بهذا رحلاتهم العديدة وسياحاتهم حتى ان مابين القرن العاشر والسادس عشر تعتبر السياحة فيه فنا اسلاميا من فنون أهل المغرب الذين أصبحوا قدوة الأوربيين • وعلى رأس الرحالة كان الشريف الادريسى ، وابن حوقل ، وابن جبير ، وقد زار الادريسى جنوبى ايطاليا واليونان ، وآسيا الصغرى والبرتغال ومراكش وجنوب فرنسا وانجلترا ، كما زار ابن جبير صقلية وكتب عنها كثيرا •

والمبدأ الذى قاله بسكال : « انه يجب عن سلسلة الآدميين الذين ظهروا بتعاقب القرون انسانا واحدا حيا فى كل زمان موصلا للمعارف على الدوام »

انطبق هذا المبدأ على العلماء المسلمين الذين لو لم يظهروا «على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربا الحديثة عدة قرون »

يقول لوبون عن الرحالة المسلمين : «وهم الذين نشروارحلاتهم الممتعة عن بقاع العالم التى كان يشك الأوربيون فى وجودها وهم الذين وضعوا الكتب الجغرافية التى جاءت ناسخة لما تقدمها واقتصر الأوربيون عليها وحدها » • ويقول أيضا : « لولا حقد الأوربيين الموروث على الاسلام لتعذر ايضاح السبب فى انكار عالم جغرافى فاضل مثل : فيفان دى سانت مارتن لفضل العرب على الجغرافيا »

وقد استوردت صقلية الكتب التى تنقصها فى مجال الدراسات الجغرافية فدخلت بلرم وسرقوسه مؤلفات عربية ويونانية مثل « العجائب » للمسعودى •

وكتب : ابن حوقل ، والكيماكى ، والجيهانى ، والغدرى ، واليعقوبى ، وابن خرداذبة وموسى بن قاسم ، وكتاب الجغرافيا

لبطليموس وأرسيوس • ومن القسطنطينية كتاب المجسطى هدية من الامبراطور الى غليالم الأول ولهذا فان أرستبس المترجم ينصح صديقا انجليزيا له بأن لايغادر صقلية لأنه لايجد فيهـــا حكمة اللاتين فحسب بل مكتبة يونانية وعونا من رجل ضليع فى الأدب اليونانى

الجـــانب العلمى :

« نشطت عبقرية العلماء المسلمين فى العصر الاسلامى وحتى بعد انتقال الزعامة الى النورمان ظل العرب ســادة الفكر فى عدد من العلوم مثل الفلك والرياضيات والنبات والصـــيدلة وبعض فروع الطب يقول همبولد : « العرب بلغوا فى العلوم العملية درجة لم يكن يعرفها أحد من القدماء »•

أ ــ الطب :

يحتـــل المسلمون المنطقة الوسطى بين الطب القديم والطب الحديث أو بتعبير آخرهم الذين اســـتطاعوا أن يتفهموا الطب اليونانى ويضيفوا اليه بعد دراسته وتمحيصــــه وابطال الزائف منه وتصحيح المخطىء فيه وما أضافوا اليه ظل تقدير العالم اذ كان نتيجة تجاربهم وخبراتهم •

وكانت كتب الطب الاسلامية هى مراجــع المدارس الطبيـــة بأوروبا حتى وقت قريب ونظرا لتفوق المسلمين فى الطب فانهـــم جمعوا الى جانب تلك البحـــوث البحث فيمـــا وراء الطبيعـــة « الميتافيزيقيا » والحكمة ولذا فان الطبيب كان يسمى حكيما •

أما طريقة الفحص الطبى عند الاطباء المسلمين فقد ارتفعت الى أرقى أساليب الفحص الطبى الحديث فكان الطبيب يجس النبض ، ويحلل البول ويتتبع تاريخ المريض والعلل التى انتابته فى حياته ويهتم بمعرفة الاصول الصحية بين أفراد أسرته وعاداتــه وطرائق

معيشته ومناخ البلدة التى يقيم بها ويفحص لون الجلد ، وملتحمة العينين وحالة التنفس الى غير ذلك ودلالـــة ذلك الدقة والعناية بالمرض ولهذا فقد برع الاطباء المسلمون فى تشخيص الامراض والتفريق بين المتشابه منها

وقد كان انتقـــال الطب العـربى الى أوروبا فى فترة مبكرة حيث أنشئت مدارس للطب فى كـــل من نابـــلى ، ومونبليه ، وبولونيا ، وبادوا ، وأورليان ، ورانس ، وأكسفورد ، وكمبردج، وأنجيه ـ كلها تعتمد على المراجع العربية المترجمة الى اللاتينيـــة كأساس لتدريس الطب ٠

ومن أهم الكتب التى ظلت عمدة الدراسة الطبية طيلـــة ستة قرون كتاب « أبوعلى بن سينا » حيث تضمن الكتاب ملاحظات قيمة عن عدوى السل والالتهاب الرئوى واحتوى على وصف ٧٦٠ دواء ٠ وقد قام بترجمته الى اللاتينية جيرارد الكريمونى وطبعت الترجمة اللاتينية عشرات الطبعات ونشر النص العربى لاول مرة فى روما سنة ١٩٥٣

وقد ترجم الكريمونى أيضا « التصريف لمن عجز عن التأليف » لأبى القاسم الزهاوى الى اللاتينية ٠

وفى مجال الترجمة ترجم الامير يوحين البلرمى من العربية الى اللاتينية بصريات بطليموس وكان فى متنـــاول يـده بعض كتب لاقليدس ٠

وقد كان النشاط المعاصر لايام ملوك النورمان نشاطا عربيـا ولهذا فقد سار غليالم الثانى سـيرة جدوده ولهذا فان ابن جبير يصفه بقوله :

« وله الأطباء والمنجمون وهو كثير الاعتناء بهم شديد الحرص عليهم حتى أنهـــم متي ذكر أن طبيبا أو منجما اجتاز ببلده أمـر بامساكه وأدر له أرزاق معيشته حتى يسلبه عن وطنه »

ونظرا لأن الزمن الذى عاصر فترة ازدهار حضارة الاسلام فى صقلية امتاز بسمة احياء الدراسات الطبية ٠

كانت المصادر الاولى التى اعتمدت عليها جامعة سالرنو فى مجال الدراسات الطبية ذات صبغة عربيـــة حيث كان الأطبـاء المسلمون يحضرون اليها لالقاء المحاضرات بها وتم انتقال تلـك البحوث عـلى يد قسطنين الافريقى الى سالرنو والـــذى قـــام بترجمة بعض مؤلفات العـــرب فى الطب الى اللاتينية وأشـــهرها مؤلفات على ابن العباس وترجم فرج بن سالم « اليهودى » كتاب الحاوى للرازى سنة ١٢٧٩ وفرج معروف فى العالم الغربى باسم Contines وقد طبع الكتاب عدة مرات بعد ظهور الطباعة وكان يهدف الى أن يكون موسوعة « انسيكلوبيديا » ويحتـــوى على مجمـــل آراء اليونان والفرس والهند وماساهم به العرب الى أن كان القـــرن الرابع عشر حيث وصلت الى الجامعات الاوروبية تراجم كاملة لمؤلفات عربية مثل كتاب ابن سينا وابن رشدوالرازى فأصبحت هذه المؤلفات عماد التدريس فى الجامعات الأوربيـــة واستمر بعضها يدرس فى جامعةمونبليين حتى القرن الثامن عشر ـ ومما أكد أهمية جامعة سالرنو من الناحية الطبية ، وبالتالى تعزيز مركز الدراسات الطبية العـــربية ماقام به فردريك الثانى الذى أعجب بالطب العـــربى وأهدى الجامعـــة نسخا منه حيث حرم ممارسة أو تدريس الطب الا لمن امتحن أمام لجنة من أســـاتذة سالرنو «١٢٣١ م »

وقدعرف العرب تلقيح الجدرى باسم « الشاوية » وقد انطوت وصايا تلك الجامعة على نصائح طبية كلها بفضل العرب ولذا فقد أحاطها النـــورمان بما أحاطوا به المؤسسات الاسلامية من العناية وربما لا يكون « لوبون » مبالغا حين يقرر « أن نسبة الوفيات على يد أطباء العرب فى القرن العاشر الميلادى أقل منها على يد أطبـاء الوقت الحاضر قبـل أن ينتشر على يد الاطبـاء الانجليز كمـــا

استعملوا البنج وسموه « الزؤان » أو الشيلم حيث استخدموه لتنويم المريض وتخديره » .

ومن الطريف حقا أن أشير الى سمة الايجاز لدى الأطباء المسلمين مما جعلهم يقررون الحقائق العلمية بطريقة موجزة من ذلك قول طبيب عربى فى القرن التاسع الميلادى :

« لا شىء يضر الشيخ مثل الطاهى الماهر والفتاة الحسناء »

وأهم تقدم للعرب كان فى الجراحة والتشخيص والصيدلة ولهذا فقد كان للطب العربى الفضل فى اكتشاف عقاقير كثيرة مثل : السليخه ، والسنا المكى ، والراوند ، والتمر الهندى ، وجوز القىء ، والكافور ، والكحول ، وكذلك فن الصيدلة وطريقة مص النبات .

يقول الدكتور كليرنى فى كتابه « تاريخ الطب العربى » :

« انعدد ماترجم من كتب العرب الى اللغة اللاتينية يزيد عن ٣٠٠ كتاب وعن العرب عرفت مؤلفات اليونان مثل كتاب ابولونيوس فى المخروطات وكتاب جالينوس فى الأمراض السارية وكتاب أرسطو فى الحجارة » .

ثم يقول : « واذا كانت هنالك أمة تقر بأننا مدينون لها بمعرفتنا ما انطوت عليه القرون القديمة من العلوم فالعرب هم تلك الأمة لا رهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى اسم اليونان . فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنعهم » .

وجهود العلماء المسلمين فى الأندلس أسهمت صقلية فى نشرها فكتب الزهراوى التى ترجمت فى اكسفورد والبندقية أغلب الظن أنها وصلت عن طريق صقلية .

وفى صقلية تم نقل كتاب المجسطى الى اللاتينية عن العربية ، كما وضع نص كتاب « العين » لبطليموس Optico وقد دخلت كتب أبى حيان التوحيدى ، ورسائل اخوان الصفا الى صقلية فى وقت قريب من سنة ٤٥٨ هـ .

وربما استمدت صقلية بعض كتب الطب من شمالى افريقيا حيث كانت القيروان فى غضون العصر الفاطمى تعايش ازدهارا طبيا وكان قداشتهر فيها اسحق بن عمران وابن سليمان الاسرائيلى وابن الجزار .

أما نسبة الطب فى صقلية فان من المصادر ما تلحقها بواحد من علماء العصر النورمانى ومنها ماتلحقه بأبى عبدالله ابن الطوبى الذى وصف بأنه زاد على ماسويه ومدحه ابن القطاع بقوله :

أيها الأستاذ فى الطب وإعراب الكلام
لك فى النحو قياس لا يساميه مسام
ثم فى الطب علاج رافع الداء العقام

ومن المصادر مايتحدث عن أبى عبد الله الصقلى الذى أسهم فى تصحيح أسماء وعقاقير وردت فى كتاب ديقوريدس .

على أنه قد استعمل الأطباء عقاقير عديدة منها الجوارش والشب والحلتيت والصبر . ووصل نفعهم الى اخوانهم بمصر ، فنجد ابن المعلم الصقلى الطبيب يعمل فى مصر .

والجدير بالذكر أن كل مدارس الطب فى أوروبا نشأت بعد مدرسة صقية العربية بأعوام حيث تجلى نشاطها فى « بلرم » وربما ساعد على ذلك أن البابا اوات كانوا قد رحلوا الى أفينيون (بفرنسا) فخلا الجو للعلم الأوربى الذى أخذ يتسرب الى شتى بقاع ايطاليا .

ومما لا شك فيه أن أهم عوامل نبوغ العرب العلمى اعتمادهم على التجربة والترصد فهم اذن أول من قال بها كما يقرر همبولد : « ان العرب ارتقوا فى علومهم الى هذه الدرجة التى كان يجهلها القدماء » .

ولاعتمادهم على التجربة اكتشفوا الكثير وأنجزوا فى مدة يسيرة ما عجز عنه سابقوهم من الاغريق والرومان .

وهكذا قطع المسلمون شوطا بعيدا فى مجال التفوق الطبى ويشهد بذلك مدير جامعة برلين ورئيس فرع الطب بها حيث قال في حفل أقيم بالكلية : « والآن اسمحوا أيها الطلاب العرب بأن نعلمكم ونعيد على أسماعكم ماأخذناه عن أسلافكم وتعلمناه من آبائكم ٠

تقول الدكتورة نجلاء عز الدين فى معرض حديثها عن حضارة العرب بصقلية : « وكثرت المستشفيات ومخازن الأدوية وصان الصحة سلسلة من القوانين المحكمة الدقيقة تتناول الأسواق والمؤسسات العامة من كل نوع وتشمل تحضير وبيع المأكولات والمشروبات والأدوية والعقاقير ويقوم المحتسب بملاحقة وتنفيذ هذه القوانين وهو من كبار الموظفين » ٠

ويقول الأستاذ العقاد : « ومن موسوعات الطب الاسلامية مالم يوضع له نظير فى الضخامة والتمحيص على قدر أسباب التمحيص فى زمانه وقد ترجمت كلها الى اللاتينية فنقلت هذه الصناعة بين أطباء أوربا من حال الى حال ولم يضارع مؤلف العربية فيها أحد من علماء الأوروبيين الى مطلع العصور الحديثة » ٠

ب ـ الصيدلة :

استنبط المسلمون العلاج فأنشأوا الصيدليات ويقال : انهم أول من أسسوا مدرسة للصيدلة وكتبوا أول كتاب فى : « الأماكوبيا » كما كان لهم قصب السبق فى عدة تراكيب كيماوية كالكحول ، وماء الفضة و « الحامض النترى » وزيت الزاج « الحامض الكبريتى » واخترعوا أصول التقطير وطبقوا الكيمياء على الصيدلة والصناعة ٠

وقد كانت الصيدلة مهنة منظمة لها أصولها وتقاليدها ولم يكن فى مقدور الصيدلى أن يعمل الا بعد اجتيازه امتحانا ثم يقيد اسمه فى الجدول الخاص بالصيادلة مع حصوله على ترخيص بالعمل ٠

جـ ـ الكيمياء ، علم الحياة والحيوان ، التاريخ الطبيعى :

ولمع العلماء المسلمون فى هذا المجال أيضا ، وما زالت تآليفهم الكيماوية تشهد بذلك :

أما المؤلفات الكيماوية الأوروبية فانها تشيد بفضل المسلمين ولا يزال كثير من المصطلحات الكيماوية الأوروبية يحمل الاسم العربى مثل :

الكيمياء :	Alchemy	القلويات :	Alkali
القصدير :	Kasdir	الخميرة :	Khamir...
التنور :	Tanur...	الزئبق :	Zaibag...
الزرنيخ :	Zarnik		

ولاجراء تجاربهم كانوا يعتمدون على موازين غاية فى الدقة بحيث لم يكن الخطأ فى الميزان يتجاوز ١/٣٠٠ من الجرام .

وقد طبقوا الكيمياء على الصيدلة والصناعة ولا سيما استخراج المعادن وصنع الفولاذ والدباغة .

كما اهتدوا الى صنع البارود والأسلحة النارية ، وصنعوا الورق من الأسمال القطنية الصعبة الكثيرة التراكيب وامتدح ذلك الادريسى فى النصف الأول من القرن الثانى الميلادى .

وقد كان ملح النوشادر من أهم الأملاح الكيماوية فى ذلك العهد وكان يوجد فى صقلية .

وفى علمى الحياة والحيوان أنجز ميخائيل سكوت للامبراطور النورمانى آنذاك ترجمة من العربية الى اللاتينية تتضمن موجز مؤلفات أرسطو فى هذين العلمين مع شرح ابن سينا لها وفى هذا المجال أيضا اهتم فردريك الثانى بأنباء ابن رشد ليعلموه دروس النبات والحيوان .

أما التاريخ الطبيعى فقد عرف أول ما عرف فى صقلية حيث عهد فردريك الثانى — وهو المشهود له بحب الثقافة العربية

واحترامها ـ عهد الى مترجمه ومنجمه ثاذرى «ثيودور» بنقل رسالة عربية عن تربية البزاة وكان لهذه الرسالة شرف الانضمام الى ترجمة أخرى فارسية ليكونا أساس الكتاب الذى وضعه فردريك نفسه فى ترويض البزاة وبذلك كان هذا التأليف أول ما عرف فى مجال دراسة التاريخ الطبيعى ٠

أما دراسة العلوم الطبيعية فقد أصبحت دراستها العربية فى القرن الثالث عشر أساس الدراسات فى أكسفورد التى قدر لها أن تناقص علم أرسطو الكيفى ٠

يقول همبولدت : « انه ينبغى علينا أن ننظر الى العرب باعتبارهم المؤسسين الحقيقيين للعلوم الطبيعية ٠

« والخلاصة أن الافرنج نقلوا عن العرب مانقله العرب عن غيرهم واستنبطوه هم أنفسهم من علو الفلسفة والهيئة والطبيعيات والرياضيات والكيمياء والطب والصيدلة والجغرافيا والموسيقى والزراعة والفراسة ٠٠

فالى العرب اذا يرجع الفضل بحفظ تراث الأولين من علوم وخبرة انتقلا بسعيهم الى أقطار الغرب ٠

وكما قال أرستبس المترجم لصديقه الانجليزى : كان يمكن فى صقلية الحصول على الميكانيكا لهيرون والبصريات لاقليدس ، والأنالوطيقا لأرسطو وغيرها من مؤلفات اليونان ٠

يقول لوبون : « العرب اكتشفوا أهم المركبات الكيماوية كالكحول وماء الفضة « الحامض النترى » وزيت الزاج « الحامض الكبريتى » ٠٠ وطبقوا الكيمياء على الصيدلة والصناعة ٠

ويقول دالمبير : « وأما فى الكيمياء فلا تجد مجربا اغريقيا مع أن المجربين من العرب فيها يعدون بالمئات فقد هذبوا فى هذا العلم ما أوحى به اليهم اطلاعهم الفائض مستنبطين مخترعين مدققين حتى أسسوا المراصد بأنحاء العالم » ٠

د - الرياضة والفلك والهندسة :

كان للآلة التى أرسلها السلطان الأشرف الأيوبى الى فردريك الثانى والتى حددت أشكال الشمس والقمر وعينت الوقت كان لها الصدارة فى مجال الدراسات الرياضية وربما قوى ذلك مايقرره سيديو فى تاريخ العرب العام من أنهم استعملوا الرقاص فى الساعات الدقيقة ٠

على أن فردريك طلب من السلطان الكامل ما طلبه من حكام المسلمين الآخرين من حل ألغاز تقوم على مسائل رياضية وفلسفية وفلكية ٠ وقد كان من بين هذه المسائل مسائل حلها عالم مصرى، ومسائل هندسية فلكية فيها تربيع قطع الدائرة وحلت فى الموصل وهذه الأسئلة هى نفس ما وجه الى الفيلسوف ابن سبعين ٠

ورحل العالم الايطالى جيرارد الكريمونى (١١١٤-١١٧٨) الى صقلية لدراسة الفلك وخاصة كتب بطليموس وخاصة المجسطى وترجمه الى اللاتينية كما قدر له أن يترجم أكثر من سبعين كتابا عربيا فى الفلك والجبر والحساب والطب ٠ أما « ارستيبو » وزير غليالم فقد ترجم «الآثار العلوية» لأرسطو وكتاب المجسطى بمساعدة الأميرال يوجينو دى بالرمه حوالى سنة ١١٦٠ وترجم يوجينو أيضا كتاب المناظر لبطليموس من العربية الى اللاتينية ٠

وقد اخترع العرب طريقة كتابة الأعداد « طريقة القبارى » وانتشرت فى المغرب وانتقلت الى أوربا ٠ ودخلت الرياضيات العربية على يد ليوناردودى بيزا فى القرن الثالث عشر ، وفى روما نشر بونكومنانى (١٨٥٧) ترجمة كتاب للخوارزمى عنوانه : Algoritimude namero, indorum. أما كتابه « حساب الجبر والمقابلة » فقد ترجمه الكريمونى ٠

أما الهندسة فقد دفع تفوق مسلمى صقلية فيها بلاط القاهرة الى أن يغريهم بالهجرة اليها ، فقد عمل المهندس الصقلى أبو محمد

عبد الكريم فى زمن الحاكم فى رصد القاهرة ، وعرف من الصقليين الفلكى أحمد بن مفرج الملقب بتلميذ ابن سابق وكان متصرفا في التنجيـــم •

ومن بقى فى الجزيرة نعرف منهم أبا الفضل أحمد بن دابق ، وأبا عبد الله محمد بن الحسن العوفى وأخاه عمر ، وعبد العزيز ابن الحاكم المعافرى • ولهذا فان المؤرخ سكوت لم يتعـد الحقيقة بقـــوله :

« من مآذن المساجد ببلرم كان الفلكى العـربى يرقب حركات الأجرام ويعين مواقيت الخسوف والكسوف ومواقع النجـــــوم ، مستعينا على ذلك بآلات اخترعت في حوض الوادى الكبير وعند نهر دجلة وبزيجات كتبت في سهول بابل قبل المســـيح بقرون » • ويقول أيضا : « فكانت مدن الجزيرة حافلة بمن يقرءون الطـــالع ويعبرون الرؤى ويتنبأون بالغيب كما كانت دار عالم الصـــنعة مزارا يؤمه الناس على اختلاف طبقاتهم وكان أحب نزيل يرحب به بلاط بلرم المتجم » •

وقد كانت مهارة العرب فى علم الجفر والفراسة ســـببا فى مبالغة أعدائهم فى مفترياتهم ، ويروى لوبون رواية طريفة لا بأس من الالمام بها هنا •• فقد حار الناس عندما رأوا تمثالا رخاميـــا نقش عليه : سأكون فى اليوم الأول من شهر مايو عنـــد طلوع الشمس صاحب تاج من ذهب •• ولم يفهم أحد ما يعنيه هـــذا القول الا عربى عالم بالجفر ، أشار بحفر المكان الذى ينتهى اليـــه ظل هذا التمثال عند طلوع شمس التاريخ المذكور ، فصنعوا ذلك فعثروا على كنز ثمين •

أما معرفة آثار الأقدام والبصمات ، فعرفها الأوربيـــون عن العرب ، وأول حادثة فى هذا المجال لدى الأوربييـــن وقعت فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٤٦ م •

وعلى أية حال فقد سبق العرب كيبلر وكوبرنيك فى اكتشاف حركات الكواكب السـيارة على شكل بيضى ، وفى نظرية دوران الأرض ..

أما أذياج الأذفونش العاشر المسماة « الأزياج الأذفونشية » ، فمأخوذة عن العرب .. كما أنهم أدخلوا التحسينات على الاسطرلاب الذى صنعه الاغريق وفى المتحـف البريطانى أقدم اسـطرلاب عـربى ..

ويلخص لوبون اكتشافات العرب الفلكية فى :

« ادخال المماس الى الحساب الفلكى منذ القرن العاشر الميلادى ووضع أزياج لحركات الكواكب وتعيين دقيـق لانحراف سمت الشمس ونقصانه التدريجى وتقدير مبادرة الاعتدالين بالضـبط وتحديد صحيح لمدة السنة ، وتحقيق لشذوذ أعظم قرص للقمر ».

ومن الألفاظ الفلكية ذات الأصل العربى : Feloque من الفلك

ومن الذين عرفوا تعبير الرؤى : ابن المعلم الصقلى ، وعلى بن عمر ابن حسنون الكنانى الصـقلى أحد تلامذة السمنطارى والذى وصفه السلفى بقوله : « كان شيخا صالحا يعبر المنامات » .

ومنهم أيضا محمد بن عيسى بن عبد المنعم « من أصحاب العلم بعلمى الهندسة والنجوم ، ماهر فيهما ، قيـم بهما ، مذكور بين الحكماء هناك بأحكامهما .

وللمسلمين فى مجالات الهندسة المعمارية وعمل الآلات منزلة كبرى اذا اعتمد عليهم رجار فى صنع آلات الحصار ، وهم الذين صنعوا القلاع المتحركة فى حصار سالونيك عـام ١١٨٥ ، وكانت منجنيقاتهم ذات أثر فعال فى اختراق الأسوار ، وصنع أحـدهم لروجار آلة لرصد الساعات لم يبقَ مما يدل عليها الا كتابة باللغات الثلاث اللاتينية فاليونانيةفالعربية .. ويرجع تاريخها الى سنة٥٣٦

وفى معجم السلفى أن أحد المهندسين صنعها لقائد اسمه يحيى ليعرف أوقات النهار بواسطة الصنج التى ترمى .

والأساليب المعمارية الاسلامية تشهد بها قصور بلرم ٠

وأخيرا فان ما يقوله الباحث الفرنسى « دولامبير » فى كتابه « تاريخ علم الفلك » خير شاهد بألمعية المسلمين ، يقـول : « اذا عددت فى اليونان اثنين أو ثلاثة من الراصدين أمكنك أن تعد من العرب عددا كبيرا غير محصور » ٠

الجامعات والمدارس :

كانت التربية منذ الأزل من سمة كل حضارة غير أن الاختلاف يتحدد فى مدى التشبع بتلك التربيـــة فاذا كانت الحضـــارات السابقة اختصت التربية بالكهنة أو الحكام ، كما رأينا فى الحضارة المصرية القديمة حيث كان العلم حقا للكهنة ، وكما رأينا لدى اليونان حيث اقتصر العلم على أبناء الأشراف والأحرار ٠٠ وكما كان لدى المسيحيين فى العصور الوسيطة حيث انفرد الرهبان بالعلم ٠

وعلى هذا السنن سار الفرس والهند ٠ أما الاسلام فقد انفرد بسمة عمومية التربية وأصبح شعاره « العلم للجميع » ٠

وقد صاحب النهضة الشاملة بصقلية ازدهار ثقافى هـــائل دفع الكثيرين الى الاقبال على العلم رغبة فى مزيد من الثقافة والصقل وقد تحدث ابن حوقل عن كثرة المساجد وكثرة المعلمين حيث كان للمسجد منزلة علية كبرى ، ففى بلرم كان يوجد أكثر من مائتى مسجد ، كانت مدارس حافلة بطلاب العلوم والى جانب دلالة كثرتها على انتصار الاسلام على المسيحية فانها بالاضافة الى ذلك تدل عـلى النهضة العلمية المتنفضة ، حيث كثر المعلمون ، وفى بلد وحدها وجد أكثر من ثلاثمائة معلم ، وقد أنصف ابن حوقل حين قرر أن معلمى صقلية فى نظره يتفوقون عـلى معلمى كل بلد ، أما نظرة أهل صقية للمعلمين فانهـــم : « أعيانهم ولبابهم وفقهـــاؤهم ومحصلوهم » ٠٠ وهم الذين يوجهون الرأى العام ٠ ومع هذا فلم

يكن التعليم يدر خيرا على أصحابه ومن الكتاب من احتوى على خمسة معلمين لهم رئيس ، ومن يرغب فى المزيد سافر الى المشرق .

والجدير بالذكر أن انعكاسا بعيد المدى بدأت طلائعه تتضح من خلال التشابه العجيب بين نظم جامعات أوربا وبين شقيقاتها العربية التى عاصرت الفترة المظلمة فى تاريخ البشرية مما يؤكد تأثير الجامعات الاسلامية فى جامعات أوربا ، كما قرر ذلك جيوم الذى قال بقيام الصلات الأكيدة بين الناحيتين والذى مهد لذلك هو الاتصال الفكرى بين غرب أوربا والحضارة الاسلامية فأخذت المعارف العربية واليونانية تتدفق وشغف الأوربيون بها حتى ضاقت المدارس الدينية عن استيعابها ومن هنا أخذت الجامعات تحتضنها وترعاها حتى قدر للشطر الثانى من العصور الوسطى أن ينجو من تسمية « العصور المظلمة » وذلك راجع لمصابيح الفكر الاسلامى الوقادة .

اذ « أصبحت بلاد العرب على الفجاءة بستانا من رجال ممتازين » .

وحيث قامت المساجد مقام الجامعات وأدت أكبر دور انسانى فى نشر المعارف والأخذ بيد التحضر ورفع ظلال الجهل .

ومن المعروف أن « سالرنو » اشتهرت بدراساتها الطبية ، وقد كان الفضل فى تأسيس هذه الجامعة راجعا الى العلماء العرب والى التنظيمات العربية والمترجمة ، ففى العهد النورمانى كان أساتذة الجامعة مسلمين وقد عين قسطنطين الافريقى مديرا لها .

أما جامعة بادوا فشأنها شأن الجامعات الايطالية لم تبعد عن التأثير الاسلامى سواء بالأساتذة أو المؤلفات مما حدا ببترارك (١٣٠٤ـ١٣٧٤م) أن يعبر عن تأثره وفزعه بقوله :

« يا للعجب استطاع شيشرون أن ينبغ فى الخطابة بعد ديموستين واستطاع فرجيل أن ينبغ فى قرض الشعر بعد هومر ،

فهل قدر علينا ألا نكتب بعد العرب ؟.. لقد أدركنـــا الاغريق وجميع الشعوب وسبقناها فى بعض الأحيان ما عـــدا العرب .. فيا للحماقة ويا للجهل ويا للعبقرية الجامدة .

وحين أسس فردريك الثـــانى جامعة نابلى عام ١٢٢٤ كأول جامعة أوربية اعتمد على المخطوطات العربية وجعل منهـا أكاديمية لنقل العلوم العربية وشرعت الترجمات والأصول تغزو جامعـات باريس وبولونيا .

وقد كان من طلاب جامعـــة نابلى توماس الأكوينى الذى تأثر بفلسفة ابن رشد وأخذ عنه الكثير بالرغم من حقده الواضح من حملاته عليه ، وقد كان لجامعة بولونيا عناية خاصة بالفلســـفة الرشدية ، ومنها انتشر التأثير الى شمال شرقى ايطاليا .

ومع الزمن كان الاقبال على الدراسات العربية يتزايد ولا سيما فى القرن الرابع عشر حيث استمدت جامعتا اكسفورد وباريس عن العرب مؤلفاتهم ، وذلك عن طريق صقلية ملتقى الثقافتين القديمة والحديثة وواسطة نقلهما معا الى الغرب ، والتى عاشت حضارتهـا الاسلامية بعد زوال الحكم الاسلامى عنها حيث ظل التشبع بالمدنية الاسلامية مستمرا .

« ذلك أن النهضة الأوربية فى القرن الثـــانى عشر ـ وهى النهضة التى كانت نشأة الجامعات من أهم مظاهرها ـ ساعد على قيامهـــا وأدى الى ازدهارها الاتصال بالمســـلمين فى الأندلس وصـــقلية » ...

« واذا أدخلنا فى اعتبـــارنا الأثر الذى تركه تدفق العلوم والمعارف الاسلامية على الجامعات الأوربية فى العصور الوســـطى فلابد من الاعتراف عندئذ بأن هذه المعارف أحدثت ثورة ضخمة فى الفكر الأوربى منذ القرن الثانى عشر ، وهى الثورة التى تمخضت عن مولد الجامعات الأوربية نفسها ثم اعتماد هذه الجامعـــات فى

حياتها أمدا طويلا على الغذاء الفكرى الذى قدمه لها علماء المسلمين » .

وقد أخذ الأوربيون فى التنظيم الجامعى عن العرب ، ومما أخذوه نظام المعيدين حيث عرف المسلمون ذلك فى حلقات العلم بالمسجد ، والمحاضرات المتنوعة بالمدارس والجامعات .

أما لفظ « البكالوريا » فيقرر جيوم أنه تحريف لعبارة حق الرواية المستعمل فى المدارس الاسلامية بتخويل من الغير .

وقد كان الاقبال على التعليم شديدا ، فقد بلغ عدد الطلبة أحيانا فى الحلقة الواحدة ثمانين طالبا من مختلف البلدان ويزيد هذا العدد فى حلقات الجوينى الذى يزيد عدد طلبته فى الحلقة الواحدة كل يوم على ثلاثمائة رجل .

وقد كانت حرية المناقشة واحترام الرأى سائدة ، فربما خالف التلميذ أستاذه أو نبهه على الخطأ .

وبينما يبلغ المسلمون ذروة نضجهم الفنى فى شتى المراكز الثقافية كان الاقطاعيون فى الغرب يحتلون المراكز الثقافية فخورين بعجزهم عن القراءة التى لم يكن يعرفها الا رجال الدين ولهذا شرعت العيون المشدودة تتجه بشغف الى الأشعة الوضاءة المنبعثة من البقاع الاسلامية .

الصنـــاعة

استغل المسلمون ثروة الجـــــزيرة الطبيعية وعرفوا كيف يستخرجون منها الحديد والكبريت والنحاس والفضـــة والشب والكحل والزاج والرصاص والنوشادر فتفوقوا فى التعدين وأعمال المناجم . واستخرجوا ثروة الجبال والبحـــار ويذكر ابن حوقل أن ثياب الكتان فى صقلية لا نظير لها جودة ورخصـــا فى دائرة المعارف : فيها الجرانيت ، وحجر الكلس ... وفيها بعض المعادن كالرصاص الفضى ، والزئبق والحديد ، والنحاس والأنتيمـون ، وفيها الرخام والبترولیوم والسنباذج والشب والملح واليشـــم والكبريت ، واعتمدت الصناعة على الحاصلات النباتية والحيوانية والمعـــدنية .

كما علموا أهل صقلية صناعة الحرير التى بدأت تغزو الآفاق الأوربية بفضل المسلمين ويشـــــهد بذلك رداء حريرى فى نور مبرج الآن كان للملوك صـــقلية ويحمل زخارف بحروف كوفيـــة ويرجع تاريخه الى عام ٥٢٠ وهذا يشير الى انتقال الأســـاليب الفنية لصبغ الأقمشة الى أوربا عن طريق صقلية . وقد كان معمل الحياكة المشهور الذى أنشاه أمراء المسلمين فى قصر بلرم الملكى يمد العائلات الملكية فى أوربا بالملابس الرســمية المطرزة بكتابات عربية ، وعرفت أوربا عن العرب نوعا من الحرير اسمه «الأطلس»

وسمته : Atlas . ونوعا من القماش صنع من شعر الماعز اسمه « مخير » وسمته : Mohair وقد كان بعض الصوف يحمل من صقلية الى رافنا .

ومن هذه المصانع أيضا صدرت الأقمشة المحـــلاة بالجواهر والطنافس المزينة وكذلك الجلد المدبوغ وبديع الحلى المصنوعة فى مصانع بلرم ومازر والتى كانت موضع تنافس وصاحبة شـــهرة فائقة مثل : الجلود الأرجوانية والحرير اللازوردى .

وظلت مصانع المسلمين مثلا يحتذى لمصانع النورمان حيث أن المسلمين صنعوا الخزانات المائية العظمى كما قرر الادريسى .

أما المهندسون والبناءون العرب فقد تابعوا نشاطهم فى أيام النورمان وبذلك نالوا من الخلود والشهرة ما لم ينله ســـابقوهم وتيسر لأعمالهم أن تعيش فى المتاحف العديدة التى تمثل الصناعة الصقلية العربية لهذه الحقبة .

وأصبحت البندقية موطن صناعة أخـــرى تقوم على ترصيع النحاس الأصفر بالذهب أو بالفضة أو النحاس الأحمر فتعددت الحرف والصناعات التى صار لكل منها سوق خاص .

وعن العرب أيضا أخذ الأوربيون صناعة الفسيفساء التى أنشئت لتزيين دور ومساجد ومدارس المعلمين .

وفى أيام فردريك الثانى قام المسلمون باجراء التجارب فى بيض النعام وحضانته أو تفقيسه بحرارة الشمس .

وفى عام ١٢٣٢ وصله من السلطان الأشرف الأيوبى آلة بديعة تحتوى على اشكال الشمس والقمر قد رتبت بصورة تتبين بهـا الساعات فى مواعيدها .

ومن مفاخر الصناعة الاسلامية فى صقلية صـــناعة الورق من الأســمال القطنية الكثيرة التراكيب وامتدح هــذه الصــناعة

الادريسى . فلم تعرف أوربا صناعة الورق الا بواسطة تقدم دراسات العرب فيها حيث تم انتقالها من صقلية الى ايطاليا وبذلك تيسر للأوربيين ـ بفضل المسلمين ـ أن يحلوا الورق محل الرقائق الجلدية المرتفعة الثمن والتى قضت على اتراث القديم بسبب اعادة استعمال ما استعمل قديما بعد ازالة ما كتب عليه فمحا رهبان أوربا فى العصور الوسطى كتابات قيمة رومانية ويونانية ليستفيدوا من الرقوق . ويشهد بتفوق العرب فى هذا المجال مصطلحات الورق التى ما زالت مستعملة حتى الآن مثل :
رزمة Razme

يقول العالم الايطالى لويجى رينالدى : « ان العرب كانوا أول من أنشأ مصانع الورق فى صقلية والأندلس ومنها انتشرت هذه الصناعة الى أوربا . ويؤكد هذا المخطوطة التى عثر عليها العزيزى فى الأسكوريال مكتوبة سنة ١٠٠٩ م ولكثرة نبات البردى صنعوا وفتلوا الحبال الضخمة للمراكب .

وقد كان للصناعة فى صقلية ديوان خاص وذلك حسب ماذكره ابن سعيد فى ترجمة أبى الحسن على بن المعام صاحب ديوان الصناعة .

أما ترسانة صنع السفن فحديث الادريسى فى وصف بلرم يكفى فى الاشارة اليها : « ومنها كانت الأساطيل والجيوش تغدو وتروح (كما هى عليه الآن من ذلك) وهى على ساحل البحر فى الجانب الغربى والجبال الشواهق العظام محدقة بها وساحلها بهج مشرق فرج » . وقلعت صناعة السفن على الخشب والحديد من جفلوذ ويلهرا . ومما يوضح أن الأسطول العربى القديم كان نموذج أساطيل الأقطار المسيحية أن كثيرا من المصطلحات العربية البحرية لا تزال مستعملة وخاصة فى جنوب أوربا نذكر منها على سبيل المثال : Kable وهى مأخوذة عن « جبل » وكلمة Arsenal وبالايطالية Darsenal وهى مأخوذة عن : « أمير البحر » .

ويرجح مارتون وسيديو أن البحارة العرب هم أول من استعمل خاصية الاتجاه في المغناطيس في أسفارهم البحـــرية فاخترعوا البوصلة .

يقول ابن خلدون : « وكان المسلمون لعهد الدولة الاسلامية قد غلبوا على هذا البحر (بحر الروم) من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه فلم يكن لأمم النصرانية قبل باساطيلهم بشيء من جوانبه .. وســـارت أساطيلهم فيــه .. من صقلية الى البر الكبير » .

وقد كان الرهبان يعجبون من حذق العرب وتفوقهم الصناعى لدرجة أنهم كانوا يعزون اكتشافاتهم الى السحر .

اما أيام النورمان فمما لا شك فيه أن رعاية ملوك النورمان كان لها فضل في حماية الطاقات العربية الهائلة ولهذا ظل العرب أصحاب السيادة في ميادين علمية عديدة ومنها ميدان الصناعة . وقد عرفه المسلمون نظم اقامة المعارض والأسواق .

الفنون الصناعية ((النفعية))

يقول « جب » مؤلف كتاب « تراث الاسلام » :

« وعلى الجملة ظلت أوربا أكثر من ألف ســـنة تنظر الى الفن الاسلامى كأنه أعجوبة من أعاجيب الزمان » .

والآن فلننظر الى أى مدى صدق هذا القول على صقلية احدى منافذ الفن الاسلامى فى العصور الوسطى .

لقد علم العرب الأوربيين طريقة زخرفة جلود الكتب بطريقة جديدة وهى التى تجعـــل الخطوط مضغوطة ومنخفضة وحملها المسلمون النازحون الى ايطاليا .

أما المنسوجات فقد انتشر نظام الطـــراز وازدهرت صناعة النسيج فى صقلية وتطلع المسلمون فى شتى البقاع لمنتجات صقلية

ويذكر المقريزى أن الأميرة عبده ابنة الخليفة الفاطمى المعز لدين الله تركت فيما خلفت ثلاثين الف شقة صقلية .

ثم اتسع مجال تلك الصناعة وأقبلت سفن البنادقة تحمل تلك المنتجات الى الأقطار المسيحية وأشهر الوان النسيج فى بلرم عباءة التتويج التى نسجت فى العاصمة (٥٢٨هـ) - (١١٣٣م) فى أيام روجر الثانى وقد رسم فى وسطها نخلة تقسمها قسمين كل منهما يمثل ربع دائرة منسوج فيه بخيوط الذهب واللآلىء رسم أسد ينقض على جمل ليفترسه وكنار العباءة مزين بخيوط ذهبية لأحرف عربية .

وفى كاتدرائية راتسبيون قطعتان من الحرير يقال : انهما هدية من هنرى السادس الذى ورث أملاك النورمان فى ايطاليا ويفهم من الكتابة التى تحملها أن صانعها اسمه : عبد العزيز وهى تحمل ملامح الفن الصقلى الذى يشبه الفن الأندلسى ويختلط به أحيانا . وفى كاتدرائية بلرم قطعة حريرية كان قد دفن بها هنرى السادس وهى محفوظة الآن فى المتحف البريطانى .

وهناك قطعة نسيج أخرى فى متحف فكتوريا والبرت بلندن ويضم متحف الآثار ببروكسل قطعة ينسبها البعض الى مصر الفاطمية وينسبها مؤلف « فنون الاسلام » الى صقلية .

الزراعة :

ولما كان المسلمون قد قطعوا فى ميدان التقدم أشواطا بعيدة المدى فقد صاحب دخولهم صقلية فترة ازدهار عامة شملت شتى نواحى العمل والانتاج فأحيوا الزراعة ونشطوها وأولوا الأرض عناية فائقة نتيجة خبراتهم الطويلة ودراساتهم الواسعة .

ولهذا فان مؤرخا كالشريف الادريسى كانت له اهتمامات بعلم النبات وألف فيه كتابه « الجامع لأشتات النبات » .

وكان نتيجة ذلك ادخـــال أنواع عديدة من المزروعات لم يكن لأرض صقلية عهد بها مثل البردى والمــران والدردار والزيتون حتى ابن حوقل يقرر أنه لم ير مثل تلك الزراعة الا فى مصر . كما أدخلوا زراعة الليمـــون ، والأرز والقطن ، والنخيل ، والقصب والبرتقال فنشأت أساليب زراعية خاصة حتى قيل : ان لصقلية طريقة خاصة فى زراعة البصل وزراعة القطن وعمل معنب من عصر العنب الحلو . وكثرت أيضا زراعة الخضروات .

وقد انتقل دود القز من سوريا الى صقلية ممـــا نشط صناعة الحرير .

وهكذا نرى فضل المسلمين في نقل نباتات قيمة الى عالم البحر الأبيض المتوسط وفى أقلمتها فى تربة تلك المناطق .

وامتاز مسلمو صقلية عن الأندلسيين بأنهم مارســوا الزراعة بأنفسهم سواء فى العهد الاسلامى أو فى العهـــد النورمانى بعكس الأندلسيين الذين يقال : أنهم تركوا ممارستها لأهل البـــلاد ، واهتموا بقنوات المياه والترع ، وأقاموا المجارى المعقوفة التى كانت مجهولة قبلهم حتى انهم اهتـــدوا الى صنع القنى ذات الأنابيب القف (السيفونات) .

وتيسر جلب المياه ولنستمع الى قول الادريسى : «والمياه بجميع جهات مدينة صقلية مخترقة وعيونها جارية متدفقة وفواكههـــا كثيرة .

ولهذا كثر تردد البساتين والمنتزهات والفوارات فى الشعر وحول شنت ماركو خاصة كان يكثر البنفسج ذو الرائحة العطرة ، ويذكر المقدسى كثرة الفواكه والخيرات والأعنـــــاب فى بلرم وضواحيها .

وفى دائرة المعارف : « وفيها كثير من الكرم والزيتـــون ومن محصولاتها السكر والبريلا والقطن والسمان والزعفـــران والمن والتوت .

ونشطت زراعة البساتين وعمرت بلرم بالكثير منها ويصف ذلك الادريسى قائلا : « وله في داخله بساتين كثيرة ومنتزهات عجيبة وسقايات ماء عذبة جارية مجلوبة اليها من الجبال المحدقة ببقعتها وبخارج الربض منها من الجهة الجنوبية نهر عباس وهو نهر جار عليه جمل من الأرحاء الطاحنة لا يحتاج معها الى غيرها » .
ولا يرد لدى الادريسى بلد بدون حديث عن الزراعة .

فالمسلمون اذن عرفوا كيف يستغلون قوة اندفاع المياه فى تحريك كل ما هو آلى وعرفوا كيف يمدون مواسير الميـــاه التى تخترق الجبال .

وأحدثوا طريقة أستخدام السواقى ذات القواديس .
على أن أهم زاوية يمكن أن تتضح من خلالها النهضـــة الزراعية هى ما أحدثه الاسلام من أثر فى تحرير عبيد الأرض . حيث قضى الاسلام على نظام الاقطاعات .

ومع القرن الثانى عشر وجدنا فى ولاية مازر اسماء عربية كثيرة تملك مساحات صغيرة من الأرض غير أن تلك الحالة الاشتراكية لم تدم طويلا اذ تلاشت مع الفتح النورمانى . هـــذا مع ملاحظة خصب الجزيرة وكرم تربتها ومعرفة المسلمين لطرق استغلالها مما جعل أسعار السلع الزراعية رخيصة .

ومنذ القرن التاسع نسمع الاصطخرى يقرر : أن صقلية فيها من الخصب والزرع والمواشى ما يفضل سائر مدن الاسلام الواقعة على البحر .

وقد ظل الأوربيون يعتمدون على الثقافة العربية فى مجـــال الزراعة الى أن ظهر بينهم فى أوائل القرن السادس عشر مؤلفون فى الزراعة وأنواعها حتى ظهر التخصص فى هذا المجال .

وكان القطن يزرع حول جطين ويصدر بكثـرة الى بلاد افريقيا وفى ميلاص يقوى بالكتان الذى كان ذا شهرة والسعة .

التجـارة :

انتشل المسلمون المستوى التجارى منذ فتحوا صقلية واتصلوا بالمنافذ العديدة . والذى يلفت النظر فى هذا المجال هو الاشـارة الى الطابع الاسلامى فى التجارة فالقرآن الكريم قانون يعتمد عليه التاجر ويتعامل على أساسه :

((يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة عن تراض منكم » ، « **وأحل الله البيع وحرم الربا** » وما نطق به الرسول أساس من الأسس التى تشغل بال التاجر المسلم .

« ما أملق تاجر صدوق » ، « أطيب ما يأكل الرجل منه ، كسبه»

ودلالة ذلك كله هو أن العناصر المتعاملة مع العرب لمسوا فيهم الأمانة والصدق والنزاهة وبهرهم ما صاحب ذلك من ثراء واتساع فى الرزق فكان لهذا أكبر الأثر الذى يعز وجوده فى عصور التأخر مثل العصور لوسطى .

الجانب الروحى والانسانى

الثقافة التى تعتبر الرصيد الضخم للمسلم فى كل مكان ثقافة اسلامية يلتزم بها ازاء دينه فلا ينسى أن دستوره الوحيد « القرآن الكريم » يشرع له فتنتظم حياته بكل دقائقها وبما فيها من سلوك نحو الآخرين ومن هنا كانت نزعة المسلم الانسانية وايمانه بالخير والسلام والتسامح والحرية واعتناق القيم الروحية التى هى أنبل ميراث انسانى منذ أقدم العصور .

وكانت علاقته بالناس مستمدة من المبدأ الالهى :

((يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم)) .

وحين تطلع بنظره الى ماوراء أفق الصحراء .. بل حين وطدت أقدامه فى أنحاء لم يكن يحلم بارتيادها .. حينذاك أيقن أنه ليس فاتحا ولا غازيا بقدر ماهو داع ومبشر بعهد جديد فلم يفكر فى أن يبطش أو ينظر نظرة متعالية هى نظرة الحاكم والمنتصر ولكنه مارس حقوقه محترما حقوق الآخرين فأكد احترام الانسان للقيم الانسانية . وحرصه على الكرامة وازالة الفوارق بين الطبقات فرحب العبيد ورقيق الأرض بهذا الدين الاسلامى ولم يعد من المبالغة فى شىء ما يشهد به الأستاذ هاربيون فى كتابه « العرب فى وطنهم » اذ يقول :

« فحيث حل الاسلام تأكدت قيمة الفرد ونهض الناس معتزين بكرامة لا تقهر » .

ومصداق ذلك أنه ألغى نظرة الطبقية بينما الحضارتان السابقتان اليونانية والرومانية آمنت بالطبقية التى أحلت العبيد محلا غير انسانى .

ولهذا فان المذهب الانسانى الذى تظهر سماته فى الحضارة الأوربية الحديثة مقتبس من العرب .

وكان موقف المسلمين من اليهود والنصارى موقف المحترم المتسامح رغم سيطرته على كل شىء فعلموهم كيف يكون التسامح الذى هو أغلى ما يمكن أن تعتز به الانسانية .

فاليهود يستقلون بتجارتهم ويتصلون بحرية بيهود المشرق وخاصة فلسطين وحين تصل رسالة الى يهود صقلية تطلب معونة مالية تقرأ الرسالة فى معابد الجزيرة ويعد المصلون بالدفع وترك للنصارى كل مالا يمس النظام العام فلهم قوانينهم وقضاتهم ومارسوامعتقداتهم بحرية اذ لم يتخل المسلم عما التزم به ازاء دينه من احترام العقائد والحرية الشخصية فسبق المسلمون مبدأ حقوق الانسان وتقدموا زمنيا وفكريا على روزفلت . وقد تحدث أمارى عن اطمئنان الأجناس التى يحكمها المسلمون على عكس اخوانهم الرازحين تحت نير النجورمانيين والفرنجة . ويقول توفز عن الصقليين : انهم بلغوا أعلى درجات الحضارة على عهد المسلمين .

وشرع الجميع يسهمون فى بناء صرح الحضارة بلا أضغان ولا كراهية وجمعتهم لغة واحدة وتقاسموا دراسات مشتركة فبدا « أن كل الحواجز التى تفرق بين بنى الانسان قد انهارت وأن الجميع كانوا يسهمون متفقين فى تشييد الحضارة المشتركة » .

أما العبيدفعلى كثرتهماستمتعوا بالحياة فى ظل الاسلاموتوفرت لديهم الحرف .

ولنبل اخلاق المسلم فانه حرص على أن يرفق بالمغلوب ، ويحترم الكلمة ويهوى الصدق ويحترم المرأة وتلك جملة موروثاته من المثل العليا التى هى صمام الأمن لحياة كل حضارة وبذلك علم الأوربيين مبادىء الفروسية .

وبعد انتهاء حكم المسلمين فى صقلية واستيلاء النورمان على الحكم حرص الملوك على التزام المبادىء التى تعلموها من المسلمين وشرع روجر ومن أتى بعده بتطبيق ما تعلمه عن المسلمين فسمعنا عن حسن ايوائه للمسلمين واحترامه لفلاسفتهم وعلمائهم .

المجالس الاجتمــاعية :

اتسمت المجالس الاجتماعية للمسلمين بصقلية بسمة العلم فهو مادة أحاديثهم ، وسمو منتدياتهم .

وكثرت المساجد ـ كما تقدم ذكره ـ وما كانت كثـــــرتها الا تنافسا فى عقد مجالس العلم حتى كان كل واحد يشرف أن يبنى لنفسه مسجدا .

ونظرا لخصب الجزيرة كثرت المتنزهات والبساتين وعمـــرت بالمتعلمين وطلاب العلم حيث تتبادل الأشعار ، والأزجال ، وتعزف الموسيقى .

المـــرأة :

احترم الاسلام المرأة على عكس ما نراه لدى اليـــونان الذين عاملوها كأداة نسل غير محترمة .

ورفع الاسلام من شأنها فهى عضو فى المجتمع وهى بالنسبة الى الرجل عضوان متكاملان قال تعالى :

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجـا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمـــــة » . ولهـــذا فان الجـــزاء منوط

بالنسبة لكل منهما بنوع عمله : ((**من عمل صالحا من ذكـــر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحســـن ما كانوا يعملون**)) ، وكفل لها مكانة اجتماعية ممتـــازة تحسدها عليها أختها فى أوربا ابان العصور الوسطى فلم تنل الأخيرة حظها من العناية تبعا لاتجاه المذهب الكاثوليكى الذى كان يعـــد المرأة مخلوقا فى المرتبة الثانية ولم تمنح المرأة هناك فى تلك الفترة شيئا من حقوقها ووصل حرمانها الى درجة أن حرمت من أى لون من ألوان النقود فيما عدا المجال الضيق الذى تقطنه وهو المنزل .. وعاملها أمراء النصارى الاقطاعيون فى القـــرون الوسطى معاملة سيئة فلم تر منهم احتراما بل كانت ترضخ لغلظتهم حتى تعـلم هؤلاءالنصارى من المسلمين كيفية معـــاملة المرأة وعرفوا عنهم حقوق معاملتها من بين مبادىء الفروسية التى انتقلت اليهم ومن بينها احترام المرأة والمحافظة عليها .

فالاسلام بحق هو الذى رفع المرأة من الدرك الأسفل الذى كانت فيه . وكل من أرخ لتلك الناحية من الاوربيين لم يجد معدى من الاعتراف بذلك أمثال : غوستاف لوبون، وكوسان دويرسال، ومسيو بارتلمى هيلر وغيرهم .

يقول لوبون : « ان الاســـــلام كان أول دين احتـــرم المرأة وأجلها » وبنفس تلك النظرة العادلة نظـر المسلمون الى الأسرة عامة فحافظوا على كيانها وحرصوا على تقوية أواصرها لان الاسرة هى الوحدات التى يتكون منها المجتمع باعتبارها ممثلة لسلسلة طويلة موغلة فى الماضى .

وقد ترك الاتصال اليومى بين المسلمين وغيرهم أثرا فى العادات والأخلاق .

١ ـ الجانب السياسى

السيادة البحرية ـ الكشوفات الجغرافية :

نظرا لأن المسلم يدافع عن عقيدة تترسب فى أعماقه فان اشتراكه فى الحرب كان بصورة متفوقة عارمة كان لها أثرها فى فرض سلطانه البحرى .

والمسلمون بعد ان فتحوا صقلية ، وأهم جزر ايطاليا وكورسيكا ومالطة وسائر جزر البحر الابيض المتوسط أصبحوا سادة البحر .

وقد تيسر لهم أن يربطوا العالم بقاراته الثلاث مدة طويلة من الزمن وبهذا الرباط تم اتساع الوجدان البشرى وكان على الثقافة أن تتجاوز أقطارها الى القارات .. ثم الى العالم كله .

واذا كانت السيادة البحرية تمت فى نطاق الحروب فان الظروف المعاصرة وهى « طبيعة العصور الوسطى » تغفر كل ما يبذل فى سبيل هذا .

أما موقع صقلية فقد جعلها موقعها البحرى « ابنة للبحر الأبيض المتوسط » ولهذا ارتبطت ظروفها بطبيعة البحر القوية .

وقد أسهم النابغة الجغرافى « الادريسى » بقسط وافر فى الشهرة البحرية كانت أبحاثه الجغرافية القبلة التى سار على هديها البحارة المسلمون .

وقد حدث أن خاف البنادقة على تجارتهم ودفعهم امبراطور الروم « ثيوفيل » الى حرب العرب فجهزوا أسطولا مؤلفا من ستين مركبا فأقلع الى صقلية والتقى بالأسطول الاسلامى فهلك معظم البنادقة وأسر من ظل حيا وعاد المسلمون غانمين .

وقد أشار ابن الأثير فى « الكامل » الى ذلك فى حوادث سنة ٢٢٥

وفى العهد النورمانى كان الاسطول الذى رشح صقلية الى مكانة الزعامة البحرية فى البحر الأبيض المتوسط قد بناه العرب الصقليون .

والجدير بالذكر هو الأثر الكبير الذى تركه المسلمون فى نفوس المتأثرين بهم ، اولئك الذين اكتشفوا العالم الجديد واحتكوا بقوم غير قومهم ولم ينسوا تعاليم الاسلام التى تقضى بحسن التعامل والجيرة وأكثر من ذلك تأثر فاسكوديجاما وكولومبس بالتراث العربى .

٢ ـ الجانب الادارى

(ا) الشرطة :

استفادت صقلية من النظام العسكرى الاسلامى الذى كان منذ صدر الاسلام ونما مع الزمن حتى اكتملت جوانبه .

وسهرت الشرطة على الأمن وكان رجل الشرطة يعرف فى اصطلاح العامة بصاحب المدينة وصاحب الليل .

أما الضرائب فيتحدث عنها ابن حوقل قائلا : « انها تضم خمسها ومستغلاتها ومال اللطف والجوالى المرسومة على الجماجم ومال البحر والهدية الواجبة فى كل سنة على أهالى قاورية » .
على أنه من المعروف أن تلك الضرائب كانت أقل مما فرضه اليونان وأعفى منها الرهبان والنساء والأولاد .

وكانت الجزية تسمى الجوالى . وعرفوا تحصيل الرسوم على السفن الراسية فى الموانىء . وكانت جباية الجزية تساوى ٤٨ دينارا عن الغنى و٢٤ عن الموسر و١٢ عن العادى وهذا أقل مما كان يأخذه الروم .

على أن نظام الجباية والضرائب كان يطبق فى صقلية كما يطبق فى الأندلس .

وقد حد الاسلام من نظام الاقطاعات ووزع الارض بطريقة عادلة كفلت المساواة وضاعفت الانتاج .

وقد بلغ من تمكن المسلمين من السيادة الادارية أنهم بعد زوال الحكم من أيديهم أصبحوا يكونون «معظم هيئة الأفاضل» . الذى يشبه الجماعة فى القيروان Bauni Uomini لمساعدة صاحب القضاء وربما كان هذا هو المجلس الاستشارى .

أما الوظائف الحكومية فى العهد الاسلامى فكانت تنحصر فى الدواوين المتعددة مثل : ديوان الخمس ، ديوان الانشاء ، ديوان الصناعة ، ديوان الخاصة ، ديوان الطراز ، ديوان التحقيق .

ومتولى الأول كان يسمى صاحب الخمس وله الحق فى ادارة البلد فى حالة غياب واليها .

أما الديوان الأخير فكان يفرض نوعا من الرقابة على سائر الدواوين .

وقد تأثر روجار بنظم الدواوين الاسلامية فاتخذ منها ثلاثة :

(١) ديوان المظالم . (٢) ديوان الطراز . (٣) ديوان التحقيق المعمور . والاخير فيما يخص الارض والارقاء ويسمى باللاتينية : Dohana de secretis ومن تلك التسمية يستدل أمارى ومن رأى رأيه بالتأثير العربى .

وقد كانت هناك مراقبة شديدة على الشئون الصحية تتناول الاسواق والمؤسسات العامة ، وتشمل تحضير وبيع المأكولات والمشروبات والادوية والعقاقير ويقوم المحتسب وهو من كبار الموظفين بملاحقة وتنفيذ هذه القوانين .

وعند الفتح قسم المسلمون البلاد الى ثلاث ولايات مما تلاءم مع جغرافيتها أحسن من التقسيم الذى كان سائدا أيام القرطاجنيين وقسمت كل ولاية الى عدة أعمال تتبع القائد الذى يخضع للوالى . وفى كل مدينة جاب ويشرف على ادارة أمور المال والمحاسبة ديوان كبير .

ولهذا فان صقلية وقت الفتح النورمانى كانت أرقى ثقافة وصناعة وتقدما اجتماعيا ، منها قبل الفتح الاسلامى .

ولم تتعرض الشرطة للنصارى باذى ويشهد بذلك « الدومنيكى كورادين » رئيس دير القديسة كاترين فى بلرم آنذاك .

كما يشهد رئيس الرهبان موركولى انه كان ينصب فى مسينة فى اثناء الحفلات العامة رايتان احداهما اسلامية .

ولم تمس الكنائس بضرر وان لم يسمح ببناء الجديد منها .

(ب) القضاء والقضاة

اشتهر القضاة بعدلهم وعفتهم ومنهم : سالم بن سليمان الكندى الذى سار بسيرة العدل وظل فى القضاء ثمانى سنوات وكان الى جانب ذلك عالما فقيها .

وقد كان القاضى أكبر شخصية فى صقلية بعد الوالى منذ أن انفصل القضاء عن الامارة ففى أول الامر اتولى أسد بن الفرات القضاء الى جانب الامارة ثم رأوا التفرغ للقضاء .

ويمتاز قضاة صقلية بالزهد والمثالية والصوفية . منهم من الصالحين أمثال : ميمون بن عمرو ، وابن أبى محرز .

ومع هذا فقد يجمع القاضى بين القضاء والتدريس ويتنازل عن راتبه غالبا .

وفى وقت ما كان قضاة صقلية تعينهم الخلافة الفاطمية ثم رات صقلية أن تفرض شخصيتها فى القضاء فاعتمدت على أبنائها .

وللقضاء كتبة ودار خاصة فى العاصمة بلرم .

وهكذا توصلوا الى النظم الدقيقة السليمة فى وقت كان الظلام فيه يغلف آفاق العالم الاوربى .

وكان فى بلرم مفتى وفى كل ناحية قاض ومسجل .

وكان نظام الارث والتمليك ملائما لعادات الصقليين وعلى هذا الاساس سار النورمان أيضا .

(ج) الرقيق :

ومع كثرة عدد العبيد فى المجتمع الصقلى بعد الفتح ، ومع اقبال الدنيا على المسلمين مبتسمة بين يديه .. مع كل هذا كان استقبال المسلم لكل هذه المظاهرة استقبال المؤمن الذى يتكىء بعقيدته على عمد راسخة وأخذ يطبق ما يمليه عليه كتابه الكريم .

« والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت ايمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون » .

ومن أجل هذا فان نزعة الطغيان لم تجد فى نفسية المسلم فرصة للتحرك واطمأن الرقيق وخاصة رقيق الارض الذين كان للاسلام فضل تحريرهم ورد حقوقهم الملكية .

وحين ينظر العبيد فيجدون الاسلام يأمر المؤمنين بحسن معاملتهم تماما كما يعامل الوالد والقريب والجار .. الخ .

فان ذلك اطمئنان لا يعدله اطمئنان :

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ان الله لايحب من كان مختالا فخورا » .

والمجتمع الذى يضم عدالة مثل تلك العدالة النادرة والتى لا تتوفر لدى أحدث وأكبر حضارات العالم اليوم !! لا يمكن أن تمر عليه ليلة بدون تقدم عظيم ، والعبد يتمتع بحرية تمكنه من العمل الجاد المثمر وما دام شرط ذلك كله حسن المعاملة والتآلف فان أجنحة السلام والامن سترفرف جنبا الى جنب مع اجنحة التفوق الثقافى .

انتقلنا عبر الصفحات الماضية من سنة الى سنة ومن قرن الى قرن فكنا فى ذلك كمن يصعد درجات عليا حتى شارف القمة ثم وجد عينيه تزرعان الافق نظرات دهشة وتعجب !!.

وقد اتضح كيف كان المسلم واسع الصدر ممتد الافق سخى الانتاج .

تمثل الحضارات السابقة وهمضها ثم شرع يخلع عليهـا من عبقريته .

وما أن نضجت على يديه حتى سارع باهدائها الى الانسانية مسهما بقسط كبير فى المجال الانسانى الواسع الذى يعتبر الحقل الفكرى حقلا واحدا فى شتى البقاع .

ويتصل بهذا اهتمام الغربيين بالتراث الاسلامى منذ العصور الوسطى فقد أرادوا الوقوف على عوامل مجد المسلمين ووصولهم الى مركز القيادة آنذاك فأقبلوا على هذا التراث دراسة واستفادة وترجمة .

ومن خلال الصور التى حاولت الالمـام بأطرها نستطيع أن نستشف حقيقة واضحة تنطق ببراعة العرب ونبوغهم .. الـى جانب الصبغة الرقيقة التى تنمق هذه الصور ، فقـد برهن المسلمون على سموهم واحترامهم لدينهم باحترامهم لحقوق غيرهم وارتباطهم بقوانين السلوك الحسن فتفوقوا فى الناحيتين الروحية والمادية معا وتلك سمة خاصة تنفرد بها حضارتنا .

وقد ساعد ذلك على بقاء ملامح تلك الحضـارة فى أوجه النشاط التى قامت فى عهد النورمان وأكثر من ذلك فان البلاط الملكى النورمانى كان ذا طابع اسلامى فمعظم رجـال الملك وأغلب عماله مسلمون .

وظل الاسلام صاحب جاذبية وسلطان فى الجـزيرة حتى كانت أمنية الرجل منهم أن يزوج ابنته بواحد من المسلمين لينال

عزا وشرفا ، وكانت الفتاة ترضى أن تفارق أهلها مع زوجها العربى رغبة فى الاسلام ،واستمساكا بعروته الوثقى .

وشغف ملوك النورمان بالنظم الاسلامية فدرسوها فاذا طرا حكم اسلامى استفتوا فيه لمعرفتهم بالأحكام الشرعية .

وظلت العبارة التالية : « لا اله الا الله محمد رسول الله » تحتل أحد وجهى العملة زمن روجر .

وقد شكل الامتداد الزمنى لنشاط المسلمين الثقافى جسرا هائلا عبرته الأندلس الى ساحة الخلود واتسم هذا الامتداد بسمتين :

السمة الاولى : الاتساع : فقد غطت الحضارة الاسلامية مساحة عريضة من التاريخ ورقعة فسيحة من الارض اذ كانت المدنية الاسلامية ناضجة فى الشرق والغرب .

السمة الثانية : العمق : فقد تغلغلت آثار تلك الحضارة فى نفوس من عاصروها ومن سمعوا عنها . وهكذا توفر الاتساع والعمق بشكل يثير الدهشة .

وانى أعارض بشىء من الثقة كل من يزعم نسبة هذا الابداع الى ابناء صقلية الاصلاء والا فأى عائق عاقهم عن الابداع قبل أن يهتدوا بهدى الاسلام ؟.

مما يؤكد أن موقد تلك الشعلة هو الاسلام ولا شىء غيره .

والنظرة المقارنة فى تاريخ صقلية ذات أهمية لتدعيم ذلك فحال صقلية قبل دخول المسلمين وحالها بعد دخولهم يدل على البون الشاسع بين المستويين .

ومستوى صقلية حال دخول الرومان ثم مستواها بعد رعايتهم للعلماء المسلمين وبالتالى مواصلة حلقات العمل الثقافى الاسلامى كل هذا يقرر الموقف الخالد للعرب فى صقلية .

وبعـــد

فأى شىء أشـــد ايلاما للنفس من التحسر على مضى ذلك التاريريخ الحافل الى مجاهل النسيان ؟!!.

يقولون : ان التاريخ الخاص بالانسانية تحتويه القبور أكبر مما تحتويه الدور .. ولكنى أقول : ان تاريخ العرب فى صقليـة لا تحويه القبور لانه أقوى من النسيان وأكبر من الزمن .

وسيظل الدور الكبير الذى تمت أبعاده المختلفة على يد العرب ممثلا لكل الخصائص الفكرية والملامح الانسانية فى سبيل دفـع الانسان الى أمام ، وفى سبيل انارة الاركان المظلمة من العالم .

تحية الى صقلية التى قالها الشاعر العربى :

صـــقلية كـــــاد الزمان بلادهـــا
وكانت علـى أهـــل الزمان محارســـا
فكم أعين بالخـــوف أمست ســـواهرا
وكانت بطيب الامن منهـــم نواعســـا

مؤسسة
دار التحرير للطبع والنشر

مطابع شركة الاعلانات الشرقية

العدد القادم

يصدر فى منتصف ربيع الأول

البطل الغزلى الفاتح

موسى بن نصير

للأستاذ

عبد العزيز حافظ دنيا

سلسلة كتب إسلامية

تصدر فى منتصف كل شهر عربى

ترقبوا

فى غرة كل شهر عربى

مجلة

منبر الإسلا

يحررها : نخبة ممتازة من قادة الفكر والأدب والفن فى الع

يصدرها : المجلس الأعلى للشئون

الثمن قرشان

مطابع شركة الا